
لغز الموت
مصطفى محمود

لغز الموت

صمم الغلاف الفنان : جمال كامل

مصطفى محمود

لغز الموت

دار العودة - بيروت

كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢

اللغز

كل منا يحمل جثته على كتفيه ..

ليس هناك اغرب من الموت ..
انه حادث غريب ..
ان يصبح الشيء .. لا شيء ..
ثياب الحداد .. والسرادق .. والموسيقى .. والمباخر ..
والفراشون بملابسهم المسرحية : ونحن كأننا نتفرج على رواية ..
ولا نصدق ولا احد يبدو عليه انه يصدق ..
حتى المشيعين الذين يسيرون خلف الميت لا يفكرون الا في المشوار .
واولاد الميت لا يفكرون الا في الميراث .
والحانوتية لا يفكرون الا في حسابوم .
والمقرئون لا يفكرون الا في اجورهم ..
وكل واحد يبدو انه قلق على وقته او صحته او فلوسه ..

وكل واحد يتعجل شيئا يخشى ان يفوته .. شيئا ليس الموت ابـــدا .

ان عملية القلق على الموت بالرغم من كل هذا المسرح التاثيري هي مجرد قلق على الحياة ..

لا احد يبدو انه يصدق او يعبأ بالموت .. حتى الذي يحمل النعش على اكتافه .

الخشبة تغوص في لحم اكتافه .. وعقلـــه سارح في اللحظة المقبلة وكيف يعيشها ..

الموت لا يعني احدا .. وانما الحياة هي التي تعني الكل .. نكتـــة ! ..

من الذي يموت اذن ؟ ..

الميت ؟ ..

وحتى هذا .. لا احد يدري مصيره ..

ان الجنازة لا تساوي الا مقدار الدقائق القليلة الـتي تعطل فيها المرور وهي تعبر الشارع ..

وهي عطلة تتراكم فيها العربات على الجانبين .. كل عربة تنفخ في نفيرها في قلق . لتؤكد مرة اخرى انها تتعجل الوصول الى هدفها .. وانها لا تفهم .. هذا الشيء الذي اسمه الموت .

ما الموت .. وما حقيقته ..

ولماذا يسقط الموت من حسابنا دائما . حتى حينما نواجهه .

* * *

لأن الموت في حقيقته حياة .

ولانه لا يحتوي على مفاجأة ..

ولان الموت يحدث في داخلنا في كل لحظة حتى ونحن احياء ..

كل نقطة لعاب .. وكل دمعة .. وكل قطرة عرق .. فيها خلايا ميتة .. نشيعها الى الخارج بدون احتفال ..

ملايين الكرات الحمر تولد وتعيش وتموت .. في دمنا .. دون أن ندري عنها شيئا . ومثلها الكرات البيض .. وخلايا اللحم والدهن والكبد والأمعاء .. كلها خلايا قصيرة العمر تولد وتموت ويولد غيرها ويموت .. وتدفن جثثها في الغدد أو تطرد في الافرازات في هدوء وصمت .. دون أن نحس أن شيئا ما قد حدث .

مع كل شهيق وزفير .. يدخل الأكسجين .. مثل البوتاجاز الى فرن الكبد فيحرق كمية من اللحم ويولد حرارة تطهي لنا لحما آخر جديدا نضيفه الى أكتافنا .

هذه الحرارة هي الحياة ..

ولكنها ايضا احتراق .. الموت في صميمها .. والهلاك في طبيعتها .

اين المفاجأة اذن وكل منا يشبه نعشا يدب على ساقين ..

كل منا يحمل جثته على كتفيه في كل لحظة ..

حتى الأفكار تولد وتورق وتزدهر في رؤوسنا ثم تذبل وتسقط .. حتى العواطف .. تشتعل وتتوهج في قلوبنا ثم تبرد .. حتى الشخصية كلها تحطم شرنقتها مرة بعد أخرى .. وتتحول من شكل .. الى شكل ..

اننا معنويا نموت وأدبيا نموت وماديا نموت في كل لحظة .

وأصدق من هذا ان نقول اننا نعيش . ماديا نعيش وأدبيا نعيش ومعنويا نعيش .. لأنه لا فرق يذكر بين الموت والحياة ..

لأن الحياة هي عملية الموت .

لأن الأوراق التي تنبت من فروع الشجرة .. ثم تذبل وتموت وتسقط .. وينبت غيرها .. وغيرها .. هذه العملية الدائبة هي الشجـرة ..

لأن الحاضر هو جثة الماضي في نفس الوقت .

لأن الحركة هي وجودي في مكـان ما وانعدامي مـن هذا المكان في نفس اللحظة . فبهذا وحده أمضي وأتحرك .. وتمضي معي الأشياء ..

لأن الحياة ليست تعادلية ، ولكنها شـد وجذب وصراع بين نقيضين ، ومحاولة عاجزة للتوفيق بينهما في تراكيب واهية هي في ذاتها في حاجة للتوفيق بينها .. مرة ... ومرة ومرات .. بـدون نهاية وبدون نجاح أبدا .. وبدون الوصول الى اي تعادلية ..

الحياة ليست تعادلية بين الموت والوجود ولكنها اضطراب بين الاثنين وصراع يرفع احدهما مرة ويخفضه مرة أخرى .

الحياة أزمة .. وتوتر ..

ونحن نذوق الموت في كل لحظة .. ونعيشه .. فلا نضطرب بل على العكس .. نحس بكياننا من خلال هـذا الموت الـذي في داخلنا .. ونفوز بأنفسنا ، وندركها ، ونستمتع بها ..

ولا نكتفي بهذا .. بل ندخل في معركة مع مجتمعنا .. وندخل في موت وحياة من نوع آخر . موت وحياة على نطاق واسع تتصارع فيه مجتمعات ونظم وتراكيب انسانية كبيرة .

ومن خلال هذا الصراع الأكـبر . نحس بأنفسنا أكثر .. وأكثر .. انها ليست خلايا تولد وتموت في جسد رجل واحد . ولكنها أيضا مجموعات بشرية تولد وتموت في جسم المجتمع كله .

انها الموت يحدث على مستويات اكبر .

الموت اذن حدث دائب مستمر .. يعتري الانسان وهو على قدميه ويعتري المجتمعات وهي في عنفوانها .

وهو في نسيج الانسان .. في جسده .. وفي كل نبضة ينبضها قلبه مهما تدفقت بالصحة والعافية .

وبالموت تكون الحياة .. وتأخذ شكلها الذي نحسه ونحياه .. لأن ما نحسه ونحياه هو المحصلة بين القوتين معا .. الوجود والعدم وهما يتناوبان الانسان شدا .. وجذبا .

ما السر اذن في هذه الدهشة التي تصيبنا حينما يقع أحدنا ميتا .

ولماذا يبدو لنا هذا الحديث غريبا .. غير معقول ، غير قابل للتصديق .

ولماذا نقف مشدوهين أمام الحادث نكذب عيوننا .. ونكذب حواسنا .. ونكذب عقلنا .. ثم نمضي .. وقد اسقطنا كل شيء من حسابنا .. وصرفنا النظر .. واعتبرنا ما كان .. واجبا .. ولباقة . ومجاملة .. أديناها وانتهينا منها .

لماذا لا نحمل هذا الحادث على محمل الجد ..

ولماذا نرتجف من الرعب حينما نفكر فيه .. وتنخلع قلوبنا حينما نصدقه وتضطرب حياتنا حينما ندخله في حسابنا ونضعه موضع الاعتبار .

السبب أنه الحادث الوحيد المصحوب برؤية مباشرة .. فما يحدث داخلنا من موت لا نراه .. لا نرى كرات الدم وهي تولد وتموت .. لا نرى الخلايا وهي تحترق .. لا نرى صراع الميكروبات وهي تقتلنا ونقتلها ..

وخلايانا لا ترى نفسها وهي تفنى ..

كل ما يحدث في داخلنا يحدث في الظلام .. ونحن ننام ملء جفوننا وقلوبنا تدق بانتظام وتنفسنا يتردد في هدوء .

الموت يسترق الخطى كاللص تحت جنح الليل .. ويمشي على رؤوسنا فتبيض له شعراتنا .. شعرة .. شعرة .. دون أن نحس .. لأن دبيبه وهو يمشي هو دبيب الحياة نفسها .

ان أوراق الشجرة تتساقط ولكن الشجرة تظل ماثلة للعيان دائمة الخضرة دائمة الازدهار .. تظل هكذا حتى تهب عاصفة تخلعها من جذورها وتلقي بها في عرض الطريق ..

وحينئذ فقط يبدو منظرها قاتما يبعث على التشاؤم .. تبدو فروعها معروقة عارية .. وجذورها نخرة .. وأوراقها مصفرة ..

لقد انتهت .. لم تعد شجرة .. أصبحت شيئا آخر .. اصبحت خشبا .

وهذا هو ما يحدث .. حينما نشاهد الانسان وهو يسقط جثة هامدة .

انه يبدو شيئا آخر ويبدو الحادث الذي حدث فجأة .. حادثا غريبا بلا مقدمات ..

لقد انتهى الانسان كله فجأة ..

ويبدأ العقل في التساؤل ..

هل انتهي أنا أيضا كلي فجأة كما انتهى ذلك الانسان .. وكيف ولا شيء في احساسي يدل على هذه النهاية ابدا .

كيف يحدث هذا .. وأنا جياش بالرغبة .. ممتلىء بالارادة .. بل أنا الامتلاء نفسه .

كيف يتحول الامتلاء الى فراغ .. وفجوة .

انا .. انا ؟!.. الذي احتوي على الدنيا .. كيف انهي هكذا واصبح شيئا تحتوي عليه الدنيا .

انـــا ؟ ..

ان كلمة .. انا .. كلمة كهربائية .. انها كالضوء ارى بها كل شيء .. ولا يستطيع شيء ان يراها .. انها اكبر من اي كلمة اخرى واكبر من اى حقيقة .. لان بها تكون الحقائق حقائق ..

انها فوق كل شيء وفوقي انا ايضا لانها تراني وتشعر بي ..

انها مصدر الاشـعاع كله .. وحيث يتمثل لي هذا المنظر المفجع الذي يلقى فيه انسان مصرعه .. فهي فوق هذا المنظر ايضا .. لانها تراه .. وفوق الطبيعة .. وفوق قوانينها .. وفوق ظواهرها.

انا اموت ! ..

من انا

ومن هو الذي مات ..

انه بعض مني .. منظر من ملايين المناظر الذي نعبر خاطري. فكيف اموت انا ايضا ..

ان التساؤل ما يلبث ان يتحول الى تمزق فظيع يحطم فيـــه المنطق نفسه بنفسه .. ويصطدم باستحالات لا حل لها ..

وهكذا تبدأ المشكلة الازلية ..

لغز الموت ..

ان مصدر اللغز هو هذا الموقف الذي ينتقل فيـــه العقل من رؤية مباشرة للموت الى استنتاج مباشر عن موتـــه هو ايضا .. وهو ابو الاشياء .. ونظامها .. وتفسيرها .. ونورها .

ولكنـــه يعود فيقـــول :

لا ..

ان الذين يموتون هم الآخرون .

ان التاريخ كله لا يروي قصة واحدة عن موت الـ .. أنا ..

ان الموضوعات تتغير وتتبـدل وتولـد وتذبـل وتموت .. والآخرون يموتون .

اما أنا .. هذه الـ انا .. لا توجد سابقة واحدة عن موتها .

أنا من مادة أخرى غير كل هذه الموضوعات .. ولهذا امسك بها واتناولها وافهمها .. ولا استطيع ان امسك بنفسي واتناولها وافهمهـا .

أنا فوق متناول الجميع .. وفوق متناولي أنا ايضا .. وفوق متناول القوانين والظواهر ..

هناك حلقـة مفقودة ..

وهي تفتح بابا تدخل منه الفلسفة .. ويتسلل منه الفكـر .. لكنه باب ضيق .. ضيق جدا .. يؤدي الى سراديب اغلبها مغلقة ورحلة الفكر في هذه السراديب مخيفة مزعجة ولكنها تثير الاهتمام .

واي شيء يبعث الاهتمام اكثر من الحياة .. والمصير .. ومن أين .. والى أين .. وكيف .

عملية تهريب

الحب قصة جميلة .. الموت مؤلفها ..

الحياة حرارة .. واحتراق .. الموت نسيجها .. والهلاك في صميمها .

اجسادنا تتساقط وهي تمشي .. في كل لحظة هناك شيء يتساقط منا ..

وكلما توهجت حياتنا كلما تآكلت في نفس الوقت ..

العدم كامن في الوجود .. كامن في اجسادنا .. كامن في احساساتنا ومشاعرنا ..

الخوف .. الشك .. التردد .. القلق .. الكسل .. التراخي .. اليأس .. القنوط .. كل هذه علامات سكون في الشعور .. كلها احساسات عدمية تفسيرها الوحيد ان هناك فجوة في تكويننا .. فجوة نراها بعين الشعور فنخاف ونجزع ونقلق ..

فجوة نطل عليها من داخلنا وان كنا لا نراها بعيننا الواعية .

ولا نتذكرها الا حينما يقال لنا .. فلان مات .

مات .. ؟ ! مات ازاي ده كان لسه سهران معانا امبارح لنص الليل .. شيء عجيب ..

ونمصمص شفاهنا .. ثم ننسى كل شيء ونعود الى حياتنا الآلية .. ولكن عيننا الداخلية تظل مطلة على هذه الفجوة .. وباطننا يظل يرتجف بهذا القلق المبهم ..

الموت بالنسبة لكل منا .. ازمة .. وسؤال .. يبعث على الدهشة والقلق .. والذعر .

ولكنه بالنسبة للكون شيء اخر .

انه بالنسبة للكون ضرورة وفضيلة .. وخير ..

الموت والحياة حينما ننظر لهما من بعيد .. وهما يعملان في الكون يظهران وهما يخلقان الواقع .

الموت يبدو مكملا للحياة .. يبدو كالبستاني الذي يقتلع النباتات الفاسدة ويسوي الارض ويحرثها ليفسح المجال للبذور الصغيرة الرقيقة لتطرح ثمارها .

يبدو كالرسام الذي يمحو بفرشاته خطاً ليثبت على اللوحة خطاً جديداً افضل منه .

يبدو خالقاً في ثوب هدام .. فهو يهدم حائط الجسد .. لان خلف الحائط يوجد ماء الحياة الجاري .

حاول ان تتخيل الدنيا بلا موت .. الدنيا من ايام آدم .. والمخلوقات وهي تتراكم فيها .. ولا تموت .

الناس .. والذباب .. والضفادع .. والحشائش .. والديدان .. وهي تتراكم .. وتتراكم .. ويصعد بعضها على اكتاف بعض .. حتى تسد عين الشمس ..

ان الحياة تبدو شيئا كالاختناق .

ان الكائن الحي يحب نفسه فقط .. ويحب اللحظة الصغيرة التي يعيشها ولهذا يكره الموت .. ولكن الموت يحب كل اللحظات ويحب الزمن .. ويحب المستقبل .. ولهذا يتساقط الناس من غرباله كالنشارة ليقوم على اشلائهم ناس آخرون احسن منهم وهكذا دواليك .

الموت هو عملية المونتاج التي تعمل مقصها في الشريط الوجودي كله فتقصه الى عدة لقطات واقعية .. كل منها له عمر محدود ..

والموت يخلق واقع الاشياء الجامدة ايضا كما يخلق واقع المخلوقات الحية .

الاشياء الجامدة لها نهاية .. والعين تدركها لأن لها نهاية .. نهاية في الطول والعرض والعمق .. ولو كانت لا نهائية في طولها وعرضها وعمقها لاختفت .. ولاصبحت عالية على الادراك .. غير موجودة ..

ان التناهي هو الذي يوجدها ..

والتناهي هو الموت .

كل ما في الكون من انسان وحيوان ونبات وجماد اذن متناه له حدود .. الموت يأكل اطرافه .. ويقص حواشيه .. ويبرزه .. ويوجده ويخلقه في نفس الوقت ..

الموت فضيلة وخير بالنسبة للكون كله لان به تكون الأشياء موجودة وتكون المخلوقات مضطرمة بالشعور والحياة .

ولكنه شر الرذائل بالنسبة للانسان الفرد .. بالنسبة لك انت .. ولى انا .. لانه ينفقنا كضرائب انشاء وتعمير .. ويقدمنا

قرابين على مذبـــح الوجود .

ونحن لا نفهم هذا النوع من القربان .. ولا نستطيـــع ان نفهمـــه لانه قربان فظيع .. وتضحية معناها ان نموت ونهلك .

نحن نعيش في مأساتنا الشخصية .. ونرى الموت كفجوة تفغر فاها تحت اقدامنا فنتشبث بأي شيء نجده حولنا .. ونتشبث بامهاتنا وبزوجاتنا .. باطفالنا .. باصدقائنا .

نشعر بالحب والشوق والحنين الى يد نمسك بها ونتشبث بها ونحتمي من الجرف الذي ينهـــار تحتنا .

ونبصر بالمراة تمد لنا يديها وقلبها وجسدها .. وتتراقص مثل كوبري عائم على نهر الفناء .. فنهرع اليها محاولين النجاة .. ونشعر بجنون اللذة والسرور والفرح ونحن بين ذراعيهـــــــا .. نشعر باننا نولد من جديد .. ونبعث .. ونهرب من المصير ..

ونمرت .. ولكن بعد ان نكون قد زرعنا صورتنا في جسدها وقمنا بتهريب جزء من وجودنا عبر هذا الكوبري الجميل مـــن اللحم والدم .. الذي مدته لنا مع ابتسامتها .

ان الحب كله قصة جميلة .. مؤلفها هو الموت نفسه .. وليس الحب فقط .. بل كل العواطف والنزوات والمخاوف والآمـــــال وشطحات الخيال والفكر والفن والاخلاق .. كل هذه القيـــــم العظيمة تدين للموت بوجودها .

اعطني اي مثل اخلاقي . .وانا اكشف لك عن الموت فـــي مضمونـــه .

الشجاعة قيمتها في انها تتحدى الموت .

والاصرار قيمته في انه يواجه الموت .. وهكذا كـــل مثـــل اخلاقي .. قوته في انه يواجه مقاومة .. وهو ينهار .. وينهار مضمونه حينما لا تكون هناك مقاومة في مواجهته .

الفنان والفيلسوف ورجل الدين ثلاثة يقفون على بوابة الموت ..

الفيلسوف يحاول ان يجد تفسيرا ..

ورجل الدين يحاول ان يجد سبيلا للاطمئنان ..

والفنان يحاول ان يجد سبيلا الى الخلود .. يحاول ان يترك مولودا غير شرعي على الباب يخلد اسمه .. قطعة موسيقية او تمثالا او قصة او قصيدة .

كلنا يخلقنا الموت .. الموت المدهش .

لو لم نكن نموت لما شعرنا بالحب .. فما الحب الا هستيريا التشبث والتعلق بالحياة .. ومحاولة تهريبها كالمخدرات في بطون الامهات .

وما الداعي الى اخلاق في مجتمع من الخالدين .. ان الاخلاق هي الخرسانة والمسلح الذي ندعم به بيوتنا المنهارة .. ونمسك به هياكلنا الفانية .. فاذا كنا من الخالدين لا نمرض ولا نموت ولا نضعف ولا يصيبنا شر فما لزوم الاخلاق .

ان كل ما هو جميل وخير وحسن في مجتمعنا خارج من هذه الفجوة .. الموت .

وكل ما هو جميل فى انسانيتنا خارج من هذه الفجوة ايضا .

ان حياتنا غير منفصلة عن موتنا .. فكل منهما مشروط بالاخر .

والاصدق ان نقول انه لا توجد حالتان .. حياة وموت .. ولكن حالة واحدة هى الصيرورة .. حالة متناقضة في داخلها ومحتوية على الاثنين معا : الحياة والموت ..

حالة متحركة نابضة صائرة من حياة الى موت ومن موت الى حياة وفي كل لحظة منها تحمل الجرثومتين معا ؛ جرثومة نموها

وجرثومة فنائها في نفس الوقت .

وهما جرثومتان لا هدنة بينهما .. ولا تعادل وانما صراع وتوتر وتمزق وشرر متطاير مثل الشرر الذي يتطاير من قطبي الكهرباء السالب والموجب حينما يلتقيان .. وهما مثلهما ايضا .. تبعثان حرارة ونورا .. هما العاطفة والوعي اللذان يندلعان في عقل الانسان الذي يعيش هذا الصراع بسالبه وموجبه ..

وهو صراع يبدو فيه العنصر الموجب اقوى من السالب .. وتبدو الحياة غلابة صاعدة منتصرة ..

* * *

كلام جميل .. ولكنه مع هذا كله لا يجعل الموت جميلا في عيوننا .

انه يفشل حتى في الاعتذار لنا عن عزرائيل وافعاله .. حتى ولو كانت في صالح الكون .. فمالنا والكون .. نحن كون في ذاتنا . .وعزرائيل ينتهك اطهر حرماتنا ، نفوسنا . . انا . .وانت .

ان اجمل اللحظات في حياتي هي التي اقول فيها . . انا فعلت .. انا قدمت .. انا انجزت .. انا اخترعت .. انا .. انا .

لا يوجد شيء في وجودي .. او وجودك . .اغلى من هذه الكلمة الصغيرة .. انا .. فكيف يمكن ان اتصور ان اموت ..

اني استطيع احداث الموت .. استطيع ان اقتل وان انتحر .. كيف يكون الموت احد اختراعاتي .. واكون انا احد ضحاياه في نفس الوقت .

اين اللغز الحقيقي .. اهو الموت .. ام هو هذه الكلمة الصغيرة . .انا ؟ ..

أنا

انا من الخارج لي حدود لي سقف
ينتهي عنده جسدي .. ولكنني من
الداخل بلا سقف ...
ولا قـــاع ...

انا.. كلمة ظريفة.. لا يوجد اظرف منها في الدنيا.. انها اغنية..
انها تدخل في اي جملة فتجعلها جملة مفيدة مهمة .. وتدخل في اي موضوع فتجعله موضوع الساعة .. لانه يصبح موضوعى انا .. وفلوسي انا .. وحبيبي انا .. وروحي انا . .وقلبي انا ؟
ولكن انا .. ؟ .. من انـــا ؟
هل حاول احدكم ان يسأل نفسه هذا السؤال ..
مـــن انـــا ؟ ..
انا فلان . .فلان ايه .. فلان ابن فلان .. يعني ايه .. مجرد الفاظ .. مجرد رموز او اشارات تدل على حقيقتي .. طيب وايـــه

هي حقيقتي ؟ ..

وهنا يبدا اللغــز .

ما هي حقيقتي ؟ ..

اني احاول ان امسك بوجودي واكتشفه وافحصه كما افحص هذه المحبرة فاجد انه وجود بلا قاع .. وجود مفتوح من الداخـل على امكانيات لا نهاية لها .. والقي بحصاة في هذا البئر الداخلي فلا اسمع لها صوتا .. لانها تهوي وتهوي الى اعماق بلا آخر ..

انا من الخارج لي حدود .. ينتهي طولي عند ١٧٠ سنتيمتر.. لي سقف ينتهي جسدي عنده .. ولكني مـن الداخل بـلا سقف وبلا قعر .. وانما اعماق تؤدي الى اعماق .. وافكـار وصـور واحاسيس ورغبـات لا تنتهي الا لتبـدا من جديد كأنهـا متصلة بينبوع لا نهائي .. وهي اعماق في تغير دائم وتبدل دائم .. بعضها يطفو على السطح فيكون شخصيتي وبعضهـا ينتظر دوره في الظـلام ..

وانا في الخارج اتبدل ايضا .. الواقع يكشط هذه القشـرة التي تطفو خارجي فتطفو قشرة اخرى من عقلي الباطن محلها ..

وكلما امسكت بحالة من حالاتي وقلت هذا هو انا .. ما تلبث هذه الحالة ان تفلت من اصابعي وتحل محلها حالة اخرى .. هي انـا .. ايضـا ..

شيء محير !! ..

وانظر حولي في العالم .. فاجد اني اعوم في هذا العالم كما تعوم البطة في الماء .. تجدف فيه بريشها ولا تبتل وانما ينزلق من عليها الماء كأنه من عنصر آخر غريب عنها ..

انا متصل بالعالم منفصل عنه في نفس الوقت ..

انه يدخل في تكويني بحكم المسكن والمأكل والمشرب والاتصال بالآخرين . .ولكنه غير ملتصق بي . .انه يذكي شعوري ويثير اهتمامي فقط . . وبمقدار اهتمامي اظل على علاقة به فاذا انتهى اهتمامي نفضته تماما كما تنفض البطة الماء من ريشها حينما تصل الى الشاطيء . .

اني احتضن العالم باختياري واخلع عليه اهتمامي وشخصيتي واتبناه واظل مصاحباً له طالما هو . . انا . . فاذا انتهت هذه العلاقة الانانية . . عدت الى نفسي . .

ولكني لا انجو مع هذا من الابتذال . .والتردي في هوة الناس . .

العالم يبتذلني احيانا فأذوب فيه بعض الوقت . . افعل ما يطلبه مني رئيس تحرير المجلة التي اعمل بها واؤدي ما يطلبه مني مدير المستشفى الذي اشتغل فيه طبيبا . .

واخضع لروتين العادة والعرف والمجاملات واضيع نفسي في الثرثرة واختبيء وراء المشاكل اليومية . . واتستر خلف الناس . . واقول وانا مالي . . هم عاوزين مني كده . . الدنيا كلها بتعمل كده . .

وفي هذه الحالات تضيع مني نفسي . . تضيع مني . . انا . . واصبح موضوعا من الموضوعات مثل الكرسي والشجرة والكتاب . . وافقد الشيء البكر الذي يميزني عن كل شيء . . ويجعل مني نسيجاً وحده . . يجعل مني . .انا . . فلان الفلاني . .

هذه اوقات لا احس بها . . وانما تبدو ممسوحة ومشطوبة من حياتي . . تبدو فترات موت . .

حريتي تعذبني . . لاني حينما اختار . . اتقيد باختياري . .

وتتحول حريتي الى عبودية ومسؤولية .. وهي مسؤولية لا ينفع فيها اعفاء لانها مسؤولية امام نفسي .. امام الاختيار الذي اخترته انـا ..

وليس امامي سبيل غير ان اختار .. لا بد ان اختار في كـل لحظة .. فاذا اضربت عن الاختيار .. كان اضرابي نوعا مـن الاختيار .. عليّ ان ادفع ثمنه فورا ..

وحبي يعذبني لاني اريد ان امتلك محبوبتي واذيبها في داخلي واشرب شخصيتها وروحها وجسدها .. اريد ان احولها الى .. انا .. وهذا مستحيل لانها هي الاخرى لها . .انا .. وذات حرة مثلي ..

ان كل ما نستطيعه هو ان نتعـانق وتتلامس شفاهنـا .. وتتلامس حقائقنا واسرارنا في لحظات مضيئة .. ثم نمضي الى حالنا .. كل واحد مغلق على سره .

ان كل ما نملكه هو ان نفتح نوافذنا على الخارج ، ولكننـا لا نستطيع ان ننقل عفشنا .. ونسكن بيتاً جديداً .

ان روحنا سر .. وذواتنا قدس الاقداس ..

ان الله يضع خل جنده على باب ذاتنا كما يقول طـاغور .. ولا يسمح لاحد منهم بالدخول فيها . .لانها حرم .. حرمها علـى الكل .. وخلقها حرة كالطائر الغرد ..

* * *

ماذا هناك .. ماذا وراء الباب ..

مـاذا بداخلـي ..

ارادة . ارادة لا نهائية لا حد لها الا نفسـها .. ارادة حـرة

خالقة مبدعة .. تنبتق انبثاقاً في بداءة وفطرة .. احسها ولا اعرفها اكابدها ولا افهمها .. لانها تفر مني كلما حاولت فهمها كما يفر النوم من عيني كلما حاولت ان اتعمقه واحلله :. وربما كان السبب انها اصيلة .. اكثر اصالة من العقل والتفكير ولا يمكن ان تكون موضوعاً للعقل والتفكير .. بل العكس هو المقبول .. ان يكون العقل موضوعها وخادمها .. وسبيلها الى بلوغ اهدافها ..

انا اريد .. والعقل يبرر لي ما اريد .. وليس العكس ابدا ..

ان كل شيء خاضع للارادة .. ثانوي بالنسبة لها ..

في لحظات ابداعي وخلقي .. في اللحظات التي احس فيها اني اخلق نفسي واخلق الافكار والقيم واكتشف العالم واصنع المعقولات احس اني ادفع العالم كله امامي .. ادفعه كالعربة ..

وفي اللحظات التي اموت فيها واسقط في هوة العادة والتكرار والتقليد والمجاملات والروتين .. وتضيع ارادتي من يدي .. احس بان العالم كله يدفعني امامه كالعربة ..

احس ان ارادة حصان في الطريق يمكنها ان تعدل طريقي وتغير سكتي ..

احس بان عين جاري تجعلني انكمش في ثيابي كأنها عين الله ..

لا شيء في الدنيا اكبر من الارادة ..

الظروف المالية .. والبيئة والوراثة .. لا تلغي الارادة ولا تمحو الحرية ابداً .. ولكنها تؤثر فيها .. تؤثر في الكيفية التي تعلن بها عن نفسها ..

انا والظروف نتصارع في لحظة الفعل فقط .. ولكن كلا منا له وجوده البكر .

انا حر وارادتي حقيقة .. تماما كما ان الظروف موجودة

وحقيقيــة .

ولكن ما هي الارادة ؟ ..

لا توجد كلمة تصفها أو تشرحها .. لانها اكبر من كل الكلمات ولانها تحتوي على كل الكلمات وتتجاوزها .. فكــل وصف يبدو حيالها ناقصاً .. انها كالشوق لا يوصف وانما يكابد ..

انهــا تنطبق عليهــا كلمة المتصوف الصــالح ابو البركــات البغدادي : اظهر من كل ظاهر واخفى من كل خفي ..

ان احسن طريق لمعرفتها هي ان تباشرها .. فهي المفتــاح السحري الذي تفتح به الكون كلــه ..

ولكن هناك اسئلة تتوارد على خاطرنا ..

هل الارادة موجودة في الزمــان ..

هل هي تنبض مثــل القلب ..

هل تنمــو مثل الجســد ..

هل تتعاقب مثل اللحظات .. وتنقضي مثل الحالات النفسية .

هل تسري مثل الضوء والكهرباء وتنتقل كما تنتقل الحرارة ..

وهي اسئلة تفتح علينا البــاب على مشكلة اخرى هي .. الزمــان ..

مــا هــو الزمــان ؟ ..

هل هو حركة عقرب الثواني والدقائق والساعات ؟ ..

هل هو دقات ساعة الجامعــة ؟

هل هو الارقام العامة التي تنشرها مصلحة الارصــاد عــن توقيت الايــام والليالي وساعات الظهر والمغرب والعشاء ..

ام هو زمن آخر خاص يعيشه كل واحد منا في نفسه ويضبط عليــه وجوده ..

اننا بهذه الاسئله نبلغ المنطقه التى يكثر فيها الضباب ويصعب الرؤيـــه ..

انها تحملنـــا الى تحت ..

انها تنزل بنا من الاوراق الى الساق الى الجذر .. الى ما تحت الخشب واللحاء .. الى العصارة التي تصعد في نباتنا فتبعث فيه الحيـــاة ..

اننا ننفض يدنـــا من تشريح الايدي والارجل ونبدأ في بحث الحركه نفسها . .ونكف عن قياس قوة العضلات لنبحث في الارادة ذاتها .. لاننا في غرفة الموتور حيث انبوبة الاحتـــراق التى تبعث كل الطـــاقة ..

وهنا تتصادم الافكار والنظريات والمذاهب في الظلام ..

الزمن

ان دقات ساعة الحائط تقـدم لك زمنا مزيفا .. ابحث عن زمنكَ الحقيقي في دقات قلبك .. ونبض احساسك ..

كل شيء في الدنيا يجري ويلهث ..
الشمس تشرق وتغرب ..
والنجوم تدور في افلاكها ..
والأرض تدور حول نفسها ..
والرياح تهب في الجهات الأربع ..
والسيول تنهمر من اعلى الجبال ..
والينابيع تنفجر من باطن الأرض ..
والنبات والحيوان والانسان تعيش كلها في حركة دائبة ..
وذرات الجماد تهرول في مداراتها ..
وظاهرات الطبيعة كلها عبارة عن حركة .. الكهرباء حركة ..

والصوت حركة .. والضوء حركة .. والحرارة حركة .. والكون كله يتمدد مثل فقاعة من الصابون وينفجر في كل قطر من الفضاء ..

المادة في جالة انتشار وذبذبة وحركة ولهذا يقول اينشتين أن لها بعدا رابعا غير الأبعاد الثلاثة المعروفة .. هذا البعد هو الزمن .. او الزمن الملتصق بالمكان ويسميه الزمكان .

المادة مثل حيوان له طول وعرض وسمك وعمر .. والعمر يدخل في تركيبها .. كما يدخل في تركيب الحيوان .. الزمن احدى الفتلات التي يتألف منها نسيج المادة ..

وهو أيضـــا احدى الفتـــلات التي يتألف منها نسيج الكائن الحي .

* * *

ولكن ما الزمن .

هل هو دقات ساعة الجامعة .. والنتيجة المعلقة بالحائط والتقويم الفلكي بالفصول والأيام ..

اننا ما زلنا نذكر كلمات المراقب ونحن نؤدي الامتحان في آخر كل سنة ..

باقي على الزمن نصف ساعة ..

نذكر الرجفة التي كنا نحس بها ونحن ننظر الى ورقة الاجابة والى ورقة الأسئلة .. والى الساعة في يد المراقب .. والى شفتيه وهما تنطقان ..

باقي على الزمن نصف ساعة ..

كأنه ينطق حكما بالاعدام .. أو حكما بالافراج ..

كان النصف ساعة عند بعضنا قصيرا جدا .. اقصر من نصف دقيقة .. لأن ورقة الاجابة ما زالت بيضاء أمامه .. ولأنه ما زال يبحث .. ويهرش في راسه .. •

وكان عند بعضنا الآخر طويلا مملا .. اطول من نصف يوم .. لانه قد انتهى من الاجابة .

كانت الساعة في يد المراقب تشير الى زمن واحد .. ولكن كلا منا كان له زمن خاص به ..

كان معيار الدقائق عند كل منا يختلف عن الآخر ..

وهذا هو مفتاح اللغز ..

* * *

ان الزمن ليس شيئا منعزلا عنا مثل الشجرة والمحبرة والكتاب .. ليس زمبلكا تحتويه ساعة اليد .. ولكنه شيء يلابسنا لكل منا زمن خاص به .

عواطفنا واهتماماتنا هي الساعة الحقيقية التي تضبط الزمن وتطيله او تقصره .

افراحنا تجعل ساعاتنا لحظات .

وآلامنا تجعل لحظاتنا طويلة مريره تقيلة مثل السنين واطول .

احساسنا بالسرعة والبطء ليس مصدره ساعة الحائط ولكن مصدره الحقيقي الشعور في داخلنا .

ان ساعة الحائط تقدم لنا رسما مزينا .. ومثلها التقويم الفلكي الذي يقسم حياتنا الى ايام وشهور وفصول .

والتاريخ الذي يقسم اعمارنا الى ماض وحاضر ومستقبل ..

لأن حياتنا غير قابلة للقسمة .. ولأن الزمن في داخلنا غير قابل للقسمة ايضا ..

ان حياتنا لحظة طويلة مستمرة يصاحبها احساس مستمر بالحضور ونحن نتعرف على الماضي من خلال هذا الحاضر .. فحينما نعيش في احساس بالتذكر نسميه ماضيا .. وحينما نسيش في احساس بالتوقع نسميه مستقبلا .. ولكن كل هذه الاحساسات هي حاضر .

والفواصل بين الماضي والحاضر والمستقبل فواصل وهمية لأن اللحظات الثلاث تتداخل بعضها في بعض كما يتداخل الليل والنهار عند الافق ..

والذي يقوم بتعيين اللحظة في الشعور هو الانتباه .

الانتباه هو الذي يضع خطا تحت بعض مشاعرنا واحساساتنا فيخيل لنا اننا وقفنا لحظة والحقيقة انه لا وقوف ابدا .. وانما نحن نعيش في حالة تدفق داخلي مستمر ابدا ودائما .

والزمن الخارجي ... زمن الساعات والمنبهات زمن كاذب خداع لأنه يساوي بين اللحظات ويجعلها مجرد ارقام على مينا ..

الساعة واحدة .. الساعة اتنين .. الساعة تلاتة .. مجرد حركة من العقرب .. وانتقال بضعة سنتيمترات على المينا .. انه ليس زمانا ولكنه اوضاع مختلفة في المكان .. اما الزمن الحقيقي فهو داخلنا .. وهو اضطراب دائم لا تتساوى فيه لحظة بأخرى .. لحظة صغيرة .. ولحظة كبيرة .. ولحظة تافهة ..

وهو غير قابل للتكرار .. لأن كل لحظة تحتوي على الماضي كله ومعه علاوة من الحاضر .. وان كل لحظة تضاف علاوة جديدة من التجربة والحياة فلا تعود الحياة قابلة لأي تكرار .. وانما هي

تعلو على الدوام مثل نهَر جار يزداد فيه الماء بين لحظة واخرى .. ولا يتشابه فيه الماء في لحظتين متتاليتين ..

ان العالم داخلنا يختلف كثيرا عن العالم خارجنا .

ان العالم خارجنا متعدد منقسم الى اجزاء منفصلة متجاورة في المكان .. يمكن ان نشاهد فيه وحدات متكررة ..

والعالم داخلنا شيء آخر بالمرة ..

انه تدفق لا تتشابه فيه لحظة بأخرى ولا يتكرر فيه احساس واحد مرتين ..

ولا تتجاوز لحظاته وانما تتابع .. وتتلاحق .. وتتداخل في وحدة غير قابلة للقسمة هي حياتنا ..

وبهذا يكون هناك زمانان ..

زمن نراه من الخارج على هيئة شروق وغروب وعصر وظهر .. وساعات ودقائق ..

وزمن آخر نشعر به من الداخل على شكل تدفق يتصف بالدوام والاستمرار والاتصال ..

ونحن نرى الزمن الخارجي بالعقل وندركه بالتحليل والقياس والحساب ونعبر عنه بواسطة الارقام ..

وندرك الزمن الداخلي مباشرة وبدون واسطة .. على شكل مكاشفة داخلية لكياننا ..

لذلك نقول عن الزمن الداخلي انه الزمن الحقيقي لأن الحقيقة تطالعنا فيه عارية بدون وساطة وبدون رموز ..

وهذا النوع من الاحساس يشبه احساسنا بالحركة .. حينما نحرك ذراعنا فنحس اننا نحركه الى فوق بدون حاجة الى أن نراه .. لأننا نحس بهذه الحركة من الداخل مباشرة بدون وساطة

الـــرؤية ..

بينما يحتاج الذي يشاهدنا من الخارج أن يرى حركات ذراعنا بعينيه ويتبعها ويحللها بعقله ليقول أننا نحرك ذراعنا الى فوق ..

ومعرفتنا نحن أرقى من معرفته لأننا نعاين الحقيقة مباشرة .

وبهذه المعرفة اكتشفنا الزمن .. زمننا الحقيقي .

ولكننا لا نعيش حياتنا كلها في الزمن الحقيقي لأننا لا نعيش في نفوسنا كل الوقت .. وانما نعيش في مجتمع .. نخرج ونختلط بالناس ونتبادل المنفعة ونتعامل ونتكلم ونأخذ ونعطي ..

ولهذا لا نجد مفرا من الخضوع للزمن الآخر .. زمن الساعات .. فنتقيد بالمواعيد ونرتبط بالأمكنة .

ونبحث عن الأشياء المشتركة بيننا لنتفاهم .. وفي أثناء بحثنا عن الأشياء المشتركة تضيع منا الأشياء الإصيلة .

العرف والتقاليد والأفكار الجاهـــزة تطمس الأشياء المبتكرة فينا وتطمس الذات العميقة التي تحتوي على سرنا وحقيقتنا ..

ونمضي في زحام الناس وقد لبسنا لهـــم نفسا مستعارة من التقاليد والعادات لنعجبهم ..

وتتكون عندنا بمضي الزمن ذات اجتماعيـــــة تعيش بأفكار جاهزة وعادات وراثية ورغبات عامة لا شخصية ..

وهذه الذات سطحية ثرثارة تقضي وقتها في التمازي والتهاني والمجاملات والمعايدات والسخافات وتنفـــق حياتهـــا في علاقات سطحية تشبه المواصلات المادية التي توصل من الباب الى الباب ولا توصل من القلب الى القلب .

وهذه الذات التافهة هي غير الذات العميقة التي نغوص اليها في ساعات وحدتنا ونكتشف فيها أنفسنـــا ونتعرف عـــلى وجوهنا

الحقيقيه . .

انها ذات جامدة مثل الجسد تحكمها الغرائــز والضرورات الاجتماعيـــة . .

وهي تشبه المرحاض النفساني نفرز فيه كسلنا وضيقنا ومللنا ونقتل فيه وقتنا بانشغالات رخيصة تافهة مثل قزقــزة اللب ولعب الطاولة . . ونحن نتأرجح في حياتنا بين هذه الذات السطحية وبين الذات العميقة . . نهبط مرة ونعلو مرة . . نعيش في زمن الساعات لفترة طويلة من يومنا في وظائف وأعمال آلية روتينية . . ونعيش في لحظات قليلة متألقة في داخلنا في زمننا الحقيقي الجياش فنهتز بالنشوة ونشرق بالسعادة ونرتجف بالقلق ونمتلىء بالفضول واللذة ونعرف نفوسنا على حقيقتها وبكارتها . .

ونحن نكتشف هذه النفوس البكر في مغامرات قليلة . .

نكتشفها لأول مرة في مغامرة الحب حينما نعثر عــلى المرأة التي تهز وجودنا . . وتخترقنا . . وتخترق عادتنا وتفكيرنا وحياتنا وتقلبها راسا على عقب . . فتبدو كأنها حياة جديدة عجيبة . .

ونكتشفها لثاني مرة في مغامرة الفن . . في لحظة الالهام التي ينفتح فيها شعورنا على ادراك جديد وتصوير جــديد للــدنيا . . فنكتب أو نغني أو نرسم أو نقول شعرا . .

ونكتشفها لثالث مرة في مغامرة التأمل وفي الشعور العميق بالتدين . . في لحظة الجلاء الفكري والصوفي التي نضع يدنا فيهــا على حقيقة جديدة فينا او في الناس حولنا أو في الدنيا . .

ونكتشفها لرابع مرة في المعمل . . في لحظة الاختراع التي نعثر فيها على سر من اسرار الطبيعة يبهرنا ويدهشنا . ويصدمنا .

كل هذه الاكتشافات تخرجنا من الزمن المتبذل المتكرر . . زمن

الساعات .. وتنزل بنـــا الى اعماقنا .. الى زمننا الحقيقي حيث كل شـيء جديد مبتكر .. مدهش .. جميل .. باعث لأقصى اللذة الفضول ..

الحب

الشهوة تكشف لك عن نوعك عن
ذكورتك .. والحـــب يكشف لك عن
نفسك .. عن ذاتك .. والملـــل من
الاثنين هـــو الاشـــعار الخفي الذي
يأخذ بيدك الـــى محبوبك الحقيقـــي

احبـــك . .

كلمة لذيذة تصيبنا بالخدر والدوار . .

كل شيء فينا يذوب ويتفتت حتى اللغة نفسها تذوب والزمن يذوب والمكان يذوب والعقـــل يذوب والقلب يـــذوب .. ونحـــن ننطقهـــا . .

* * *

اللغة تتعطل في لحظة الحب ويحل محلها سكوت ناطق معبر . والزمان والمكـــان يتلاشيـــان في غيبوبة صاحيـــة تكف فيها

اللحظات عن الداعي ونتصهر في احساس عميق بالنشوة والنصر والفــرح ..

قد تكون هذه النشوة لحظة واحدة .. ولكن هــذه اللحظة تصبح كالأبــد ..

الحب يؤبدهـــا فتستمر ماثلة امـــام الشعور .. تستمر في المستقبل لسنوات طويله تلاحق صاحبها وقد القت ظلا طويلا على حياته .. وامتزجت بصحوه ونومه وأحلامه وهذيانه .. والتصقت به من داخله فاصبح من المستحيل عليه أن ينفضها مع ثرثرة كل يوم ومشاغله وتفاهاته ..

أصبحت بعض نفسه .. تحيا بحياته .. وتموت بمماته .

* * *

في لحظة الحب ينفتح شيء فينا .. ليس الجسد .. بل ما هو اكثر .. بوابة الواقع كلها تنفتح على مصراعيها فتتلامس الحقائق والمعاني الجميلة والمشاعر التي يحتوي عليها الحبيبان .

ويحدث الانسجام من هـــذا التماس بين الأفكـــار والمعاني والأحاسيس الرقيقه ..

ويخيل للاثنين في لحظة انهما واحد .. ويسقط آخر قناع من اقنعة الواقع .. فتذوب الأنانية التي تفصلهما .. ويصبحان مصلحة واحدة وفكرة واحدة .

ولكنها لحظة خاطفة لأن الواقع الصفيق ينسدل من جديد بين الحبيبين فيعود الهم يعزلهما الواحـــد عن الآخـــر .. هم الـــزمن والساعة التي أزفت والميعاد الذي انتهى والوقت الذي حتم على كل منهما ان يعود الى عمله .. وهم المكان الذي يعزلهما كل واحد في بلد .. وهم الجسد الذي يحوي كلا منهما في كيان مستقل مـــن

اللحم والدم .. وهم المجتمع الذي يحتوي على الاثنـين ويطالبهما بالتزامات وواجبات .. وهم الماضي الذي يدخل كشريك ثقيل الظل في كل لحظة ..

اننا لا نعيش وحدنا .. بل هناك الآخرون .. وكلهم ينازعون حريتنا ولقمتنا وحياتنا ..

وفي هذا الزحام نضيع ويطمس الواقع على احلامنا ويأخذنا معه في دوامة من التكرار السخيف من الاكل والشرب والنوم .. لا نفيق منها الا لنغيب فيها من جديد وتمضي حياتنا في روتـين ممل لا نلتقي فيه بأنفسنا ابدا .. ولا نذوق الحب ولا نعرفه .

وقد نتزوج ونعيش حياة بليدة هادئة .. نلتقي فيها بزواجاتنا كما نلتقي بدفاتـر الحضور في الديوان .. نوقع عليها كـل ليلة لنثبت حضورنا في الميعاد .. ونعيش حياتنا الجنسية بدون وجدان .. وتظل الزوجة في نظرنا مجرد انثى لقضاء الحاجة .. يمكن ان تحل محلها الخادمة او اية امراة بدون أن نحس ان شيئا ما ناقص او مفقود .

* * *

ان الشهوة شيء غير الحب ..

انها اقل من الحب بكثير .. فهي رغبـة النوع وليست رغبة الفـرد ..

انها علاقة بين طبيعتين وليست علاقة بين شخصـين .. علاقة بين الذكورة والانوثة ..

والفرد لا يكتشف فيها نفسه ولكنه يكتشف نوعه وذكورته ..

والحب يحتوي على الشهوة ولكن الشهوة لا تحتوي عليه ..
بالحب لا تكتشف فقط انك ذكر .. ولكنك تكتشف أيضا أنك فلان وانك اخترت فلانة بالذات ولا يمكن أن تستبدلها بأخرى ..
ان كلمة « احبك » هي اعمق واجمل كلمة في حيـــاة الرجل لانها ليست مجرد كلمة وانما هي نافذة يطل منهـــا على حقيقتـــه وسره ..
والحياة الخالية من الحب حياة باردة موحشة سخيفة خالية من الحماس والطعم والبهجة .. تنساب فيها الرغبات مضعضعة ميتة من الملل والضجر والفراغ ..
الحياة بـــلا حب .. غريبـــة ..
و الشهوة لا تسعفنا ، ولا تطفيء عطشنا ولا تعوضنا عن الحـــب ..
انها وسيلة للهروب فقط نبدد بها نشاطنا ونتخلص منه .
انها مثل الخمر والقمار والمخدرات وسيلة للاغماء والاعياء والبـــلادة ..

* * *

والشيء الوحيد الذي يستطيع ان يحل محل الحب هو الفن ..
لانه ينفذ الى القلب مثله .. ويكشف مثله عن ذاتنـــا العميقة ..
ويوصلنا الى اللحظات الابدية المليئـــة . .ويطلعنـــا على كنوزنـــا واسرارنـــا . .
وما يبدعه الانسان من فنون خالدة يدل على انه يحتوي على بذرة الخلود في داخلـــه .

وما يعيشه من لحظات ابدية يدل على انه يحوي على الابدية في قلبه .

* * *

والحب الذي هو اعمق من كل حب لا يفجره في القلب الا التصوف والشعور الديني .. لان الدين هو الذي يعيد الانسان الى النبع الذي صدر منه ويأخذ بالانسان الساقط في الزمان والمكان ليرفعه الى سماوات الابدية ولا يرفعه الى هذه السماوات الا الحب .. منتهى الحب الذي يفنى به العابد عن نفسه وعن الدنيا شوقا الى خالقه .

وما حب الانسان للمرأة .. وما حب الانسان للفن .. وما حب الانسان للجمال .. الا خطوات الدليل الخفي الذي يقودنا الى الله .. الى المحبوب الوحيد الذي يستحق الحب .. انها محطات سفر الى المحطة النهائية .. محطة الوصول . .

مرة بعد مرة يكتشف الانسان ان موضوعات حبه لا تملك وجودا حقيقيا .. فالوردة تذبل والشمس تغرب والمرأة تشيخ والجديد في الفن يبلى .

وما رآه في المرأة جمالا يكتشف انها لا تملكه وانه يزايلها بالشيخوخة .. انه لم يكن جمالها .. لقد كان وديعة اودعت عندها ثم استردها صاحبها . .

وتبرد الشهوة ..

وتفتر العاطفة ..

ويتجه الرجل بحبه الى امرأة اخرى لتتجدد الخيبة ويتجدد الملل

ويتجـــدد الضجـــر ..

لا .. ان حبه اكبر من ان تسنوعبه ذراعان .

ان حبه يعبر به الغايات المحدودة ويتجاوزها الى قيم الفـــن والجمال والخير والعدالة والحقيقة .

وهو على عتبة هذه المجردات يكتشف انه يريد الله بكل حبه فهو الواحد الذي تتجسد فيه كل هذه القيم اللانهائية .

هو اللامحدود في مقابـــل المحدود .

ها هو اخيرا يجد الجواب على السؤال اللغز الذي طالمـــا حيره

لماذا خلقت . . لماذا وجدت في هذه الدنيـــا ..

هو الآن يعرف لماذا خلق .

ليصل الى حقيقة نفسه .. وليدرك الهـــه .

وما ارض الواقع الا المزرعة التي يلقي فيها بامكانيـــــاته لتورق ولتثمر وتتحقق .. تلك الامكانيات الباطنـــة فيه بطون جنين القمح في بذرة القمح .

وهو يرى نفسه كارادة هائلة تتخبط في سروال ضيق مـــــن الجلد واللحم لا يسمح له الا بالسير البطيء خطوة خطوة والحياة بالقسط لحظة بلحظة .. وفي كل خطوة من خطواته وفي كل لحظة من لحظـــاته يترك باعماله اثرا يدل عليه .

وهو كل يوم يملأ ورقة الامتحان ويجيب عن الاسئلة الازلية

من انـــت

ماذا تريد ان تقول

ماذا تريد ان تفعـــل

ماذا تخفي في قلبك

ليكشف عن مكنونه ويحقق ذاته

ويقوده حبه لنفسه وحبه للمرأة وحبه للجاه والسلطان الى يأس بعد يأس وملل بعد ملل واحباط بعد احباط حتى يشرق فيه حب الحق ليدله على الطريق . الى الواحد الاحد الذي تجتمع فيه كل الكمالات .

ويزداد حبه عمقا ليصبح عبادة وصلاة . .وهو يصعد في طريق العودة الى منبع الانوار . .

وهو الآن يشعر انه وجد نفسه حقا وعرف الهه وعرف هدفه وعرف طريقه .

وهو يدرك ان كل ما عاناه من عذاب والم واحباط ويأس لم يذهب عبثا . . فقد كانت كل تلك الآلام هي المؤشرات التي كشفت له طريقه ودلته على حقيقته . . كانت بوصلته ودليله في بحر الظلمات .

ومن اجل هذا خلق الله الحياة . .

ان الانسان معجزة المتناقضات .

انه فان ويحتوي على خالد .

وميت ويشتمل على حي .

وعبد ويحتضن قلبا حرا .

وزمني ويحتوي على الابدية

وحبه وفنه وتفكيره وصحته ومرضه وجسده وتشريحه تدل كلها على هذا التركيب المتناقض .

الدنيا كلها تقيده وجسده يقيده مثل الجاكتة الجبس . . ومع ذلك . . لا تمنعه هذه القيود من ان يضمر في نفسه شيئا . . وان يفرض هذا الشيء على ظروفه .

فهو يصهر الحديد ويسوي الجبال بالارض ويشق الانناق وبطلق قذيفة من عدة اطنان الى القمر .. كل هذا وهو جسم صغير هلامي من اللحم والدم ..

وهو يرقد مريضا مشلولا يائسا .. فاذا اجتمع بزوجتـــــه انجب طفلاِ يرتص من الصحة والعافية ..

اين كانت هذه الصحة مختفية في المرض ..

وهو يبدو ضعيفا قليل الحيلة .. تقتله رصاصة بمليم.. تماما مثل الرصاصة التي تقتل الكلب .. ولكنه مع هذا يستطيع ان يطلق من فمه قبل ان يموت صيحة يهدم بها نظاما باسره ..

من اين يخرج صوته .. وينساب تفكيره .. وينصب شعوره .. وتتدفق قواه غير المحدودة ..

ان اعضاءه تبدو في التشريح من مادة تقبل الوزن والقياس .. وتخضع للزمن ..

ولكن شعوره يكشف عن مادة اخرى وزمن اخر يعيش فيا غير زمن الساعات والدقائق .. زمن حر يقصر ويطـول حسب ارادتــــه ..

وتعمق هذا الشعور في لحظات الحب والالهام والتصوف .. يكشف عن حقيقة اغرب ..

ان هناك افقا ثالثا في داخله ..

افقا غير زمني .. لحظاته ابدية مليئة .. لا تنقضي مثـــــا اللحظات وانما تظل شاخصة في الشعور مائلة للوجدان ..

ماذا تكون تلك اللحظــات ..

اتكون هي الثقوب التي تطل على سره ..

وماذا يكون سره الخافي تحتهـــا ..

اهو الروح ؟ !! ..

وما الروح ؟ !! ..

انهـا الحريـة ..

الحرية جوهر الانسان وروحه . .ومن خلال محاولتنا لفهم الحرية سوف نقترب من فهم الروح ..

الخيط

القشة في البحر يحركهـا التيـار
والغصـن على الشجرة تحركه الريح
والانسـان وحـده . .هـو الذي
تحركه ارادته ..

اجمل ما في الدنيا انها واضحة .. تغمرها الشمس .. كل شيء فيها يمكنك أن تراه وتسمعه وتزنه وتقيسه وتتذوقه وتحلله وتستنتجـه ..

كل ما يحدث فيها له سبب .. واذا عرفت سببـه استطعت احداثه .. كل شيء يجري بنظام محكم من الأسباب والنتائج .. واذا كان لديك ورقة وقلم فانك تستطيـع ان تحسب بالضبط متى تشرق الشمس ومتى تغرب .. لانها تتحرك حسب قانون ..

وكل شيء في الدنيا يتحرك حسب قانون ..

الا الانسان .. فانه يشعر أنه يمشي على كيفه .

الانسان وحده هو الحر المتمرد الثائر على طبيعته وظروفه ولهذا يصطدم بالعالم ويصارعه .. ويستحيل في اية لحظة ان تتنبأ بمصيره ..

ان ما يحدث داخل الانسان وفي قلبه لا يخضع لقانون ... لا توجد هذه الحلقات المترابطة من الأسباب والنتائج في داخل نفوسنا .

اننا نرغب .. ونتحمس .. ونعمل ولكن هذه السلسلة من الرغبة والحماس والعمل لا تتبع الوحدة الاخرى حتما .. وانما يظل الانسان قادرا على التملص في أية لحظة .. فاذا تراءى له ان يصرف النظر .. فان رغبته تموت وحماسه يبرد ولا يتسلسل الى غايته ..

والسبب ؟ ..

لا يوجد سبب ..

انه لم يعد يريد ..

ولماذا لم يعد يريد ..

كده ..

هو ببساطة لم يعد يريد ..

ان مجرد ارادته سبب .. في غير حاجة الى سبب ..

وهذه الحرية .. وهذا التملص من الـ .. لا بد .. واللازم .. والضروري .. لا يوجد في اى مكان في الدنيا الا في الانسان .. انه وحده الذي يخلق نفسه بنفسه .. ويولد كل يوم ميلادا جديدا .. ويتطور ويتكون .. وتتغير شخصيته وتدخل عليها التعديلات والتبديلات ..

ان ارادته تدخل على كل لحظة فتعدلها وتخل بأي تعاقب

طالما انها ارادت هذا الاخلال ..

ولهذا يستحيل التنبؤ .. لان لكل لحظة تبدو جديدة غير متعاقدة بسابقتها .

لا شيء يحول بين الانسان وبين ان يضمر شيئا في نفسه .. انه المخلوق الوحيد الذي يملك ناصية احلامه ..

* * *

ولكن هذه الحرية البكر الطليقة في الداخل ما تلبث أن تصطدم بالعالم حينما تحتك به لأول مرة في لحظة الفعل :

ان رغبتنا تظل حرة طالما هي في الضمير والنية ..

نستطيع ان نرغب اي رغبة .. ونحلم اي حلم .. ونتمنى اية امنية .. ولكن المأساة تبدأ في لحظة التنفيذ حينما تحاول رغباتنا ان تحقق نفسها في الواقع .. فتصطدم بالقيود .. واول قيد نصطدم به هو الجسد .. جسدنا نفسه الذي يحيط بنا مثل الجاكتة الجبس .. ويحاصرنا بالضرورات والحاجات ويطالبنا بالطعام والشراب ليعيش ويستمر ولا نجد مهربا من تلبية هذه المطالب .. فنجري خلف اللقمة ونلهث خلف الوظيفة ونضيع في صراع التكسب ونفقد بعض حريتنا ..

وليس امامنا حل غير هذا فرغباتنا لا تستطيع ان تعلن عن نفسها بدون جسد ..

وجسدنا هو اداة حريتنا ..وان كان يقيد هذه الحرية في نفس الوقت ..

وليس جسدنا وحده بل اجساد الاخرين ايضا ادواتنا ..

فنحن ننتفع بما يصنعه العامل وما يزرعه الفلاح وما يخترعه المخترع وما يكتبه الكاتب وكل هذه ثمار اجساد الاخرين وحرياتهم ..

ان المجتمع اداة هائلة موضوعة في خدمتنا بما فيـه من بريد ومواصلات ونور ومياه وصناعات وعلوم ومعارف .

وحينما يركب احدنا قطارا فانه يركب في نفس الوقت على حرية جاهزة اعدها له آلاف العمال والمخترعين والمهندسين في سنين تاريخية طويلة .. وهو يدفع في مقابل هـذا الكسب ضريبة من حريتـه .

وليس المجتمع وحده هو الذي يتقاضـاه ضرائب .. ولكن الكون كله .. جاذبية الارض .. وضغط الهواء .. ومياه المحيطات والغابات بحيواناتها وطيورها والسماء بكواكبها .. كلها تحاصره وتحاصر حريته وتطالبه بنوع من الوفاق معها .

وهو بالوفاق يربح حريته دائما ..

بالوفاق مع العالم يمتطيه كما يمتطى الجواد ..

فهو حينما يفطن الى اتجاه الريح .. ويضع شراعه في مواجهته يمتطي الريح ويسخره لخدمته .

وحينما يفطن الى أن الخشب اخف من الماء .. ويصنع مركبا من الخشب .. يمتطي الماء .. وبالمثل حينما يفطن الى نفع الناس ويسير في اتجاههم .. يكسب الناس ويكسب معونتهم ..

ان المجتمع يضغط على الفرد وعلى حريته .. والدنيا تضغط على الفرد وعلى حريته .. ولكن العقل يستطيع دائما أن يقلب هذا الضغط الى مصلحة ومنفعة وحرية .. بأن يكتشف ببصيرته القوانين التي تربط الاشياء بعضها ببعض .

* * *

ان الانسان يعيش مضطربا بين عالمين .. عالم رغباته ونزواته وكلها حرة طائشة بلا حدود .. وعالم المادة حوله وهي جامدة محدودة مغلولة في القوانين ..

وسبيله الوحيدة هي معرفة هذه القوانين .

حريته لا تستطيع ان تشق طريقها بدون العلم .. انها بدون العلم .. تكون مجرد رغبة مجنونة في داخله .. مجرد نية .. وحلم وامل سجين .

مجرد حرية وجودية تصلح مادة لقصة او قصيدة او اغنية او تمثال .. او مغامرة .. او جريمة قتل .. ولكنها لا تصلح لكسب حقيقي واقعي .

ان الفرق بين العبودية والحرية هو خيط رفيع . خيط رفيع يرقص عليه الانسان .. ويتأرجح .

اذا سقط في داخل نفسه ضاع في أحلام اليقظة والرؤيا والاماني .

واذا سقط في العالم ضاع في دوامة الزمن الآلي .. وجرفه الروتين والعرف والتقاليد .. وابتلعه المجتمع في جوفه .

واذا فتح عينيه ونظر الى العالم حوله فانه يستطيع النجاة بحريته . ويستطيع ان يقفز على الحبل خطوات واسعة الى الامام ..

ان طريقه ضيقة محفوفة بالمخاطر .. والموت يترصده من كل جانب .

ان عليه ان يدرس الواقع حوله بما فيه من منخفضات ومرتفعات ومطبات .. ويكتشف ما فيه من قوى .. ويتعرف الطريق الى قيادتها والاستفادة منها ..

ان الخيط الذي يسير عليه هو خيط ضيق من الواقع .. يحف به العالم من ناحية .. وتحف به رغباته الطائشة من ناحية أخرى..

ولو دخل في نفسه ولاذ برغباته وأحلامه وانطوى على ذاته فانه يموت كما تموت الوردة التي تنفصل عن شجرتها .. وتستعبده شهوته وتسجنه غرائزه ..

واذ ذاب في المجتمع وخضع للناس خضوع الشاة .. فانه يموت ويفقد شخصيته ..

وحبل النجاة هو ذلك الخيط الرفيع .. حيث يحدث التصادم بين نفسه والعالم .. بين داخله وخارجه .. وحيث تلتحم رغباته بالدنيا .. مائة مرة كل يوم ..

حبل النجاة ان يكون ذاتيا موضوعيا في نفس الوقت . أن تكون عينه مفتوحة على داخله .. واعية لما يجري حوله .. وان يتدفق نشاطه من هذه البطارية ذات القطبين على الدوام .

بهذا وحده يفوز بنفسه « ويفوز بالعالم » ويصبح انسانا حرا.

* * *

ولكن هل يفوز بحريته بحق وبلا حدود .. الا توجد سلطة عليه غير ظروفه ..

هل يستطيع ان يقول انه مخير وانه لا توجد قوة اعلى منه ترسم له مصيره وقدره .

أم ان حريته في غايتها هي حرية بشرية محدودة نسبية .

وأين يكون مكاننا من المشكلة الازلية .. بين .. المخير .. والمسير ..

مسيّر أم مخيّر

الانسان مخـــير فيما يعلم . .
مسير فيما لا يعلم

سؤال شـانك محير .
هل انا مخير ام مسير ؟
شعوري يقول في كل لحظة اني حر .
وواقعي يكشـف لي في كل لحظة الف لـــون ولون مـــن الوان الجبر والقهر .
اين انا في هذه المشـكلة .
هل انا الذي اختار حياتي .
ام ان حياتي هي التي تختار لي .
تعودت دائما كلما تناولت هذه المشكلة في مقال ان أختـــار جانب الحرية . . وكانت خطابات القراء تنهال علي في كل مرة في سيل من الاحتجاجات .

ولهذا فكرت أن ادخل الى الموضوع هذه المرة بطريقة جدلية .. وان اجعله في صورة حوار سقراطي فأبدأ بالاشكال كما يتصوره القراء في خطاباتهم وتساؤلاتهم ثم اتخذ من تساؤلاتهم مدخلا الى الموضوع لأكون اقرب ما يمكن الى عقل القارىء العام وتصوراته .

* * *

يقول القارىء احمد ناجي شرف الدين تعليقا على مقالي في خطاب طويل :

.. ستة آلاف يوما عشتها ولا ادري لم أعيش .. والى اين اسير .

تلاثة وعشرون عاما عشتها وانا أمثل رواية الأبدية .. صحو .. منام .. شرب .. طعام .. صمت .. كلام .. وداد وخصام والأيام تكر .. والسنون تمر .. والعمر يمضي دون ان أعرف من انا .. ولماذا اتيت .. والى أين أسير ..

اني اجري وراء المستقبل .. وأمني النفس بالآمال .. ففي المستقبل ابلغ آمالي .. وفيه أصلح نفسي .. وفيه انيب الى ربي .. وفيه أكتب تلك المعاني التي طالما جاشت بها نفسي .. ولكن المستقبل لا يأتي أبدا .. وحينما يأتي يصير حاضرا وابدأ في التفتيش عن مستقبل آخر .

حينما كنت في الابتدائية كنت اتمنى أن اصبح تلميذا في الثانوية ارتدي البنطلون الطويل وأصفف شعري واحتفظ بقطع الطباشير الميري لألقيها على أطفال مدرسة الروضة التي تجاور مدرستنا كما كان يفعل معي طلبة المدرسة الثانوية المجاورة ..

ويوم وصلت الى هذا الامل هان علي وذهب بهاؤه وانطفات روعته وبدات انظر الى مستقبل آخر واصبحت اتمنى ان اكون موظفا في الحكومة مثل سيد افندي الذي يسكن عند خالـي واتأبط الجريدة اليوميه واناقش في السياسه الدولية واجلس واضعا رجلا على رجل والعب الطاولة .. وقد كان .. اذ ما كادت سنوات أربع تمر حتى كنت موظفا بالحكومة .. وذقت تلك المرارة التي يشعر بها الموظف والتي كان يخفيها سيـد افندي تحت جاكتته وابتسامته المفتعلة .. وهان علي الامر مرة اخرى وذهب بهاؤه وتغير حالي بانتقالي مـن عالمي الساذج الى دنيا الوظيفة بما فيها من تملق ونفاق وكذب .

وجاء أول الشهر لاقبض أول مرتب .. سبعة جنيهات .. وكنت حينذاك في اسيوط على بعد مئات الأميال من بلدي .. وبدأت اشعر بضيق الحياة .. وتبددت آمالي ..

لم اتمكن من الجلوس على مقهى .. ولم اتمكن مـن تهيئة وقت للمذاكرة . واصبح التحاقي بالجامعة استحالة .

وضاقت حرياتي حتى كادت تنعدم ولم يبق منهـا الا حرية الحصول على خبز اليوم اتبلغ به لأعيش يوما آخر .

اين الحرية التي تتشدق بها وتملأ بها مقالاتك .

هل انا حـر .. وكيف .. وانا لا اكاد املـك الا الكفاف ولا اصلح الا لمشوار واحد من الديوان الى البيت ومن البيت الى الديوان .

كيف اتزوج وكيف اعيش وكيف استمر في تعليمي وكيف أحفظ صحتي .. وكيف أوفر كل هذه الحريات وليس لدي امكانيات .

اني لا املك الا حرية واحدة هي حرية قتـل نفسي اذا كنت تظن ان هذه حرية .

* * *

ويكتب سمير زكي سوريال بحقوق القاهرة قائلا :
اذا كنا أحرارا فما معنى القانون والأخلاق والأديان والمدنية
ان كل هذه الأشياء قيود على حرياتنا .
ان القانون يمنعني من أشياء .
والأخلاق تحرم علي اشياء اخرى .
والأديان تخيفني من أشياء ثالثة وتقيدنـــي بضوابط وأوامر ومنـــاهي .
والمدنية تربطني بعجلة الأسرة والبيت والمصنع ولآلـــة ..
وتضبطني كالساعة على مواعيد انام فيها وأصحو .
ان الحياة حولنا قيود في قيود .
أين الحرية التي تتكلم عنها .

* * *

ويتحداني محمد عبد القادر قائلا :
أين هي حريتك .
هل اخترت مولدك .
هل اخترت أباك وأمك ودينك ووطنك .
هل اخترت شكلك وطولك وعرضك .
هل اخترت النظام الاقتصادي الذي تعيش فيه .

* * *

ويكتب عبد الرؤوف .. ليسانس فلسفة بحثا يقول فيه :

اني اكون حرا عندما اكون انا الله .. او حينما اكون انا العالم .. حيث لا يوجد شيء سواي اخضع له وانقيد به .

ان الحرية الكاملة تستلزم عدم وجود شيء غيري لأن اى شيء يحدني .. الناس .. والطبيعة .. والظروف .. كلها حدود .. ومثل هذه الحرية مستحيلة .

واذن فانا لست حرا الا بقدر ما عندي من وسائل تحقيق هذه الحريـــة .

ان حريتي مشلولة وناقصة .

* * *

وينتهي عبد الفتاح سليم الى انه مسير مقهور علــى حاله وافعاله ، ثم يسأل كيف يكون مسيرا ومقهورا ومجبورا بهذه الكيفية ويحاسبه الله ويعاقبه أو يكافئه ويجزيه .. أين وجه العدالة الالهية في القضية .

* * *

اما احمد الالفي فينتهى الى انه حر ولكنه يتساءل كيف يكون حرا ويتدخل الله لنجدته .. الا يكون في هذا التدخل اخلال بحريته ..

كيف يمكن التوفيق بين فكرة الحرية وفكرة العناية والتدخــل الالهي .

كيف نكون أحرارا وكل ما نفعله بأمر الله .. قدره علينا منذ الازل .. هو الذي خلقنا وخلق افعالنا وهو الوحيد الذي يفعل ..

لا اله الا هو وما نحن الا ادوات ارادته .

* * *

وبهذه الخطابات والتساؤلات يحيط القراء بكل جوانب المشكلة الازلية .. مشكلة المخير والمسير .

وهم يحشدون اسلحتهم ضدي ويشحذون أدمغتهم .. ويصرخون في وجهي في صوت واحد .

وهذا وحده اول دليل على حريتهم فقد صنع كل واحد منهم رايا مستقلا ولم يتقيد بكتبي ولا مقالاتي ولم يخضع لوجهة نظري .

وانتقل الى اعتراضاتهم فاقول ان اغلبها يدور حول نقطة واحدة .. هي القيود المضروبة حولنا .

وبعض هذه القيود تصل الينا بالوراثة مثل الاسم والجنس والدين والوطن فنولد بها كما نولد بجسمنا .

وبعضها يصل الينا من بيئتنا .. مثل الطبيعة التي نعيش فيها حرها وبردها ورعدها وميكروباتها وأمراضها وناسها .

وبعضها من صنعنا وابتكارنا مثل القوانين والاخلاق والنظم السياسية .

وجميعها في النهاية تقيدنا فلا يبقى لنا الا القليل او ما دون القليل .

وهذا ما يجعل القاريء عبد الرؤوف يقول :

ان الحرية مستحيلة .. وانها اذا كانت ممكنة فليس لها الا طريق واحد .. ان يفنى كل شيء حولنا وينعدم .. وان أصبح وحيدا منفردا مثل الله بلا شريك وبلا آخرين معي وبلا اشياء ..

ذات حرة مجردة بدون مقاومات من اي نوع .

والقاريء ينسى ان الحرية تفقد معناها بمجرد سقوط المقاومات حولها لان انعدام المقاومات حولي وامتلاكي لكل شيء في كل وقت معناه انتفاء كل نقص عندي ومعناه كمالى لاني اصبح الكل في الكل . . وبالتالى ينعدم مطالبي ورغباتي لان المطالب والرغبات منبعها احتياجاتى .

وبانعدام الرغبه والمقاومه سقط معنى الحرية لانها تكون استهدافا فارغا الى لا شيء ويكون هى ذاتها لا شيء .

ان مشكلة الحرية ترتبط دائما برغبة تتاجج في الصدر ومقاومة تقف في سبيلها . .

وتتأكد الحرية بانهيار المقاومه وتراجعها امام الارادة . .

بهذه الصورة الجدلية تكشف الحرية عن مدلولها في الواقع .

اما الانسان الاوحد المنفرد الذي تلاشت من امامه الظروف والمقاومات وانعدم كل شيء حوله . . واصبح هو الكل في الكل . . واشتمل على العالم في ذاته . . وتحول الى اله . . ماذا يطلب هذا الكائن واي شيء يعترض مطلبه لتصبح حريته أو عدم حريته محل سؤال .

أين الصراع الذي تكشف الحرية مدلولها من خلاله .

ان مثل هذا الكائن لا يتحرك ولا يرغب ولا يأكل ولا يشرب ولا ينمو ولا يكبر ولا يموت ولا يولد .

انه يعيش في سكون وابد وعالم بلا زمان وبلا مكان وكلمة الحرية بالنسبة له هي غير الحرية التي نعرفها ونتكلم عنها في عالمنا . .

ماذا يطلب وهو المستغني المكتفي بذاته . .

ان الحرية التي تتداولها كلمة بشرية صرفة .. كلمة لا معنى لها الا بوجود القيود .. بوجود المقاومات .. بوجود الظروف التي يصرخ منها القراء ويضجون ويشتكون .

ان نطلق الحتميـــة المضروب حولهم هو الذي يجعل لحريتهم معنى وليس هو الذي يهدمها كما يظنون .. لأن الحرية تعبر عـــن نفسها باختراق الظروف وزحزحة المقاومات وهدم العقبات ..

الحرية عملية مرتبطة باحتكاك الانســـان ببيئتـــه وبظروفه ويلغيها ان يصبح الناس الهة ..

ان السؤال المهم هو :

هل تذوب المقاومات مع الزمن ..

هل تتقهقر العقبات .. عقبة خلق أخرى تحت ضغط الارادة واسرار الانسان ام ان كل حياتنا كالحارة السد ..

والجواب نعم .. تتقهقر العقبات .. ويتقدم العلم ويتحكم في الحر والبرد والريح والماء والهواء ويطور القوانين والانظمة الـــى احسن واحسن ..

وفي هذا دليل واقعي أكيد على حرية الانسان .

***

اضغط على الزر الكهربائي في غرفتك فينتشر الضوء وينهزم الظـــلام .

الا تحس ان هذا الكسب العلمي البسيط اضاف الى حريتك

ومثل هذا الكسب الوف غيره تنتفع بها في كل لحظة .. حينما تضع رجلك في ترام او تدخل سينمـــا أو تقـــرا كتابا أو تتحدث في

تليفون .

ان كل شيء يصرخ في اذنيك بان الحرية حقيقة والتاريخ يلهث جريا الى الامام ليؤكد لك انك حر .. والأقمار الصناعية تهتف في الفضاء بأن من يجتهد يصل وان الطريق مفتوح أمام ارادة البشر .

وما القدر الا مجرد واسطه تكشف بها الحرية عن ذاتها وتؤكد وجودها ..

* * *

ويصرخ القارىء قائلا .. هل انا حر وانا لا اكاد املك الكفاف

فيثير بذلك قضية الحرية بمعناها الاجتماعي .. وكيف انه لا حرية لمن لا يملك القوت .. وان توفير القوت في ذات الوقت توفير حرية ..

والسؤال هو ما هذا القوت المطلوب توفيره .

أهو مائدة عليها لحم وخبز وأرز وفواكه وثلاجة لحفظ هذه الأطعمة وعربة ليقضي بها كل منا مشاويره سعيا لجمع هذا القوت.

ان كان هذا هو القوت المطلوب فان توفيره لن يكون توفيرا للحرية وانما سيكون تبديدا لها .. ومعناه أن يكون الانسان في خدمة الطعام وليس الطعام في خدمة الانسان .. معناه تبديد الوقت والجهد والفكر لتحقيق الوفرة المادية ومعناه أن يصبح الانسان في النهاية عبدا لهذه الوفرة ويفقد حريته ..

أما اذا كان المقصود بالقوت هو الكفاف فان القضية صادقة فحين لا توجد كسرة الخبز لا توجد حرية ..

ولكن اذا توفرت هذه الكسرة وهذا ميسور فالبحث عن المزيد ليس كسبا لحرية وانما اضاعة لها .

ولقد كان غاندي اكثر الناس حرية وهو يسعى حافيا على قدميه لا يملك الا مغزل صوف يدوي وكيس به بضع تمرات وعنزة يشرب من لبنها ويصنع من صوفها ثيابه .

وكذلك كان محمد والمسيح .. والأحرار العظام الذين صنعوا لنا حرياتنا وغيروا التاريخ ..

وشرط الحرية هنا هو الكفاف لأن اكثر من هذا خضوع لعبودية البطن كما أن اضاعة العمر في الجري وراء النساء هو خضوع لعبودية الشهوة ..

ولا يحق للقارىء أن يصرخ لأنه لا يملك الا الكفاف قائلا لقد فقدت حريتي .. أين حريتي ..

بل لقد وجدت حريتك ما دمت قد وجدت الكفاف .. فما يزيد على الكفاف ليس حرية بل عبودية ..

* * *

اما الاعتراض بأن الأخلاق قيود على الحرية .. والقانون قيد على الحرية والضوابط الدينية قيود على الحرية فهو غير صحيح فكل هذه الضوابط مثل اشارات المرور الأحمر والأخضر والاصفر .

وبدون اشارات المرور تتصادم العربات ويقف المرور ويفقد كل سائق حريته .

انها ضوابط هدفها اتاحة الفرصة لأكبر قدر من الحرية وليس مصادرة للحرية .. وانما الحرية تستحيل بدونها لأن المجتمع يتحول الى غابة ويأكل بعضه بعضا ويهلك ..

وانت حينما تقيم الضوابط على شهوتك تكسب حريتك لأنك تصبح سيد نفسك لا عبد الغريزة التي تطيح بعقلك في لحظات ..

وبالمثل الشجاع اكثر حرية من الجبان واكثر حرية من المتهور .
والكريم اكثر حرية من البخيل واكثر حرية من السفيه .
والصبور اكثر حرية من الجزوع الهلوع .
اما حريه القمار والسكر وندخين المخدرات والتبذل الجنسي فهي ليست حريات .. انها درجات من الانتحار واهدار الحياة وبالتالي اهدار الحرية ..
وكل اختيار ضد القانون الطبيعي ليس اختيارا وانما اهدار الاختيار .
وكلنا نعلم اننا اذا اردنا ان نزداد حرية ونحن نسبح نختار السباحة مع التيار وليس ضد التيار .
وحينما وضع الانسان الأول مروحة في اتجاه الريح دارت المروحة واستطاع بذلك ان يصنع طواحين هوائية يسخر فيها الطبيعة لخدمته وبذلك ازداد حرية .
وهو الآن يضع التوربينات في مساقط المياه ويولد الكهرباء .
الحرية كانت دائما هي اكتشاف القانون الطبيعي والعمل في اتجاهه وليس العمل ضده .
وهي بالمثل اكتشاف قوانين الجسم والنفس والروح والعمل في اتجاهها بالأخلاق واحترام الآخرين والتدين وطاعة القوانين .
اما القارىء الذي يتحداني قائلا :

* * *

هل اخترت شكلك وطولك وعرضك ..
فاني اقول له لم اختر شكلي ولا طولي ولا عرضي .. ولا

أرى هذه الأشياء قيودا على حريتي .. بل أراها على العكس ادوات حريتي .

فالجسم هو أداة الارادة في بلوغ أغراضها .

وهو لا يكون قيدا الا في حالة المرض فانه يتحول الى سجن ولكن الله اعطانا العقل لنتغلب على أمراضنا بالتداوي والجراحة . ونحن نتقدم في هذه الميادين كل يوم .

ويبقى بعد ذلك اللغز الأزلي .. في علاقة الانسان بالله .. كيف يكون الانسان حرا وهو من أمر الله وكل ما يفعله بقضائه وقدره . ثم كيف يحاسب بعد ذلك واخطاؤه مقدورة عليه .

وهو لغز القدر الذي حثت الأديان على البعد عن الخوض فيه لأن الجواب لا يمكن أن يأتي الا مكاشفة والهاما عن طريق القلب وليس العقل .. ولأن المعول فيه على ايمان المؤمن لا فلسفة الفيلسوف .. لأن العقل فيه لا يجدي والفلسفة لا تنجد .

وانما لا بد ان يشف القلب وترق الحواس لترتفع الحجب ويستطيع الانسان ان يرى بعين البصيرة وليس بعينه البشرية ويتجاوز سجن الواقع المحدود بالاسباب والمسببات ليطل على ما وراءه .

لأن الجواب الكامل يحتاج الى معرفة علاقة الروح بخالقها وهو أمر محجوب .

ولكن هناك كلمات قليلة يمكن أن تقال كدليل طريق .

فالانسان حر هذا صحيح ولكن حريته مخلوقة اي مقدورة عليه ..

وهذا اشبه بأن نقول انه محكوم عليه بالحرية مضطر للاختيار وهذا يضعه في منزلة بين منزلتين .

فهو ليس حرا حرية الله المطلقة .
وهو ليس مقهورا مسيرا مجبورا جبر المادة العمياء .
وحينما نقول ان النار تأكل الحطب فهذه علاقة جبرية حتمية اي انها لا بد ان تأكل الحطب حتما فلا يمكن أن تكون مسؤولة .
والمادة كلها ترسف في هذه الحتميات .
والانسان ليس مسيرا بهذه الدرجة .
ولا هو حر حرية الله المطلقة .
انما هو في منزلة بين المنزلتين .
فهو مخير فيما يعلم ؛ مسير فيما لا يعلم .
او هو بكلمة ادق مخير مسير في ذات اللحظة وهذا هو ما نسميه بالحرية البشرية ولهذا ايضا فهو مسؤول بدرجة وليس مسؤولا بشكل مطلق .
فكما ان القاضي يحكم ويدخل في إعتباره الظروف والدواعي والمغريات والضغوط النفسية فيخفف ويشدد بناء على هذه الاعتبارات . . كذلك يحكم قاضي الأزل الذي لا يخفى عليه شيء .
ولكن لن يكون الانسان غير مسؤول.لأن مقامه ليس مقام المادة العمياء . .
والله لا يأمر الظالم ان يظلم . .
وانما هو يعلم انه سوف يظلم بحكم انه محيط بكل شيء علما .
وفارق بين سبق العلم وبين الاكراه .
الله أعطانا الحرية وهو يعلم منذ الأزل ماذا سنفعله بهذه الحرية .

وهو يقول لنا انه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .
ويقول لنبيه .. لا اكراه في الدين ..
لأنه لا يتدخل ولا يحب لأحد أن يتدخل باكراه النفوس على غير طبائعها لأن ذلك يتنافى مع قدسية الحرية التي أرادها لها .
اذن الحرية حقيقة ..
ولأن هذه الحرية هي ارادة الله فهي جبر واختيار في ذات الوقت .
وانما تكون الرحمة الالهية بأن تجد النفس تيسيرات من جنس طبعها « كل انسان ميسر لما خلق له » .
ولهذا لا يتنافى التدخل الالهي مع الحرية بل يؤكدها :
ان كل نفس تجد جميع الظروف ميسرة لتفصح عن مكوناتها في ذاتها بالخير او بالشر .. لتكون كما هي ..
أما كيف يخلق الله واحدا ليظلم كما يخلق آخر ليعدل فتفسيره ان ارادة الله مطلقة فهو يريد المحبوب كما يريد المكروه .
ولكن قضت عدالته بعد ذلك أن يختار من يحب لما يحب وان يختار من يكره لما يكره .. فاختار الشرير للظلم والخير للعدل ..
ولو انه اختار الشرير ليعدل والخير ليظلم .. لانقلب الميزان وهذا مستحيل في حقه فهو الكامل في عدالته .
هذه مجرد اشارات .. أما كمال العلم فهو من أمور البصيرة .. ومما لا تنفع فيه الكلمات العادية المبتذلة في التعبير .
وكشف جميع جوانب اللغز وادراك معقولية التناقض .. وكيف أن « الانسان مخير مسير » في ذات اللحظة .. هو رهن بالمجاهدة وانفتاح القلب وشفافية الروح وليس من علوم الكلام .

النوم

أنت حينما تنام .. تتحول الـى شجرة ..

هناك زر كهرباني في المخ ينطفىء في لحظة النوم .. فيسود الظلام وتسود الغيبوبة .. وتمر الشخصية بحالة غرق ويتحول الانسان الى شجرة .. الى نبات بدائي .. الى شيء تستمر فيه الحياة على شكل وظائف .. دورة الدم تجري .. التنفس يتردد .. الخلايا تفرز .. الامعاء تهضم .. كل هذا يتم بطريقـة تلقائيـة والجسد ممدد بلا حراك .. تماما مثل نبات مغروس في الارض تجري فيه العصارة وتنمو الخلايا وتتنفس من اكسوجين الجو .

انها لحظة غريبة يسقط فيها الجسد في هوة التعب والعجز . ويستحيل عليه التعبير عن روحه ومعنوياته الراقية فيأخذ أجازة .. ويعود ملايين السنين الى الوراء .. ليعيش بطريقة بدائية كما كان يعيش النبات .. حياة مريحة لا تكلف جهدا ..

ان سر الموت يكمن في لغز النوم .. لأن النوم هـو نصف الطريق الى الموت ، نصف الانسان الراقي يموت أثناء النوم .. شخصيته تموت .. وعقله يموت .. ويتحول الى كائن منحط مثل الأسفنج والطحلب يتنفس وينمو بلا وعي .. وكأنه فقد الروح .

انه يقطع نصف الطريق الى التراب .. ويعود مليون سنة الى الخلف ..

يعود عقله الواعي الى ينبوعه الباطن . وتعود شخصيته الواعية الى ينبوعها الطبيعي الذي يعمل في غيبوبة كما تعمل العصارة في لحاء الشجر .. ويلتقي الانسان بخاماته الطبيعية .. بجسده وترابه ومادته والجزء اللاواعي من وجوده ..

ان الشعراء يقولون أن لحظات النهار سطحية لأن الوان النهار البراقة تخطف الانتباه .. ولحظات الليل عميقة لأن الليل يهتك هذا الستار البراق ويفك أغلال الانتباه فيغوص في أعماق الاشياء ..

وانا اقول ان لحظة النعاس هي أعمق اللحظات لأنها تهتك ستارا آخر هو ستار الألفة .

النعاس يمحو الالفة بيني وبين الاشياء فتبدو غريبة مدهشة مما يدعوني أحيانا الى التساؤل .. وانا انظر حولي في غرفة نومي بين النوم واليقظة .. واهمس : انا فين ؟..

اني لا أتعرف على سريري .. ولا أتعرف على دولابي .. وتسقط الالفة تماما بيني وبين غرفتي فتبدو غريبة ..

وهذه اللحظة لحظة عميقة .. لان العقل يخرج فيها من اطار ظروفه ويتحرر من الالفة والتعود والأحكام العادية وينظر حوله من جديد .. ليصدر أحكاما جديدة أكثر تحررا .. والهاما .

والانبياء كانوا يتلقون الهامهم في هـذه اللحظـة .. وكان الوحي يأتيهم بين النعاس والغيبوبة ..

ونيوتن اكتشف قانون الجاذبية في هذه اللحظة.. وهو ينظر بعين نعسانة الى تفاحة تسقط من الشجـرة .. لقـد احس أن سقوط التفاحة امر غير مالوف .. وان التفاحة لا يمكن ان تسقط عـلى الأرض .. وانما الأرض هي التي يجب ان تجذبها ..

وكل المخترعين والمؤلفين والشعراء والمفكريـن .. تفتقت اذهانهم في هذه اللحظة .. لأنها اللحظة الحرجة التي سقط فيهـا المالوف .. والمعتاد .. ولمعت الحياة بالدهشة .. وبرق العقل بأسئلة جديدة تماما .. لم يكن ليلقيها لو كان في كامل يقظته .. وكامل ارتباطه بالأشياء ..

والفرق بين النبي.. والعبقري .. في تلك اللحظة هي مساحة الرؤيا التي تنكشف لكل واحد .

النبي يشبه جهاز تليفزيون به مليون صمام .. مساحة الرؤيا فيه شاسعة .. وقدرة استقباله كبيره .. فهو يستطيع ان يستقبل صورا من المريخ على شاشة بانوراميه عريضة لأنه مؤيد بوسائل الهيـة .

والعبقري هو جهاز ترانزيستور صغير يكاد يستمـع الى محطة القاهرة بصعوبة .. لأنه يعتمد على اجتهاد الخاطر الذي قد يخطىء وقد يصيب ..

ولكن الاثنين يسبحان جنبا الى جنب في بحر الحقائق .

* * *

والنوم في حقيقته يقظة عميقة . تتيقظ فيه الوظائف الأصيلة.. فتنتظم دورة الدم .. وينتظم التنفس .. وينتظـم الهضـم ..

والامتصاص والافراز .. ويتوقف الهدم .. ويبدأ النمو والبناء ويقل الاحتراق الذي يحدث في النهار .

وتتيقظ رغبات اكثر اصالة من رغبات النهار ..

الغرائز كلها تتيقظ وتعمل .. وتنشر نشاطها في الأحلام .. وتفضح عن نزواتها على مسرح رمزي مبهم لا يستطيع فك رموزه وطلاسمه الا صاحبه .

ويدخل النوم بعد هذا في مرحلة أعمق .. هي النوم الثقيل .. وهي مرحلة تخلو من الاحساس تماما .. وتخلو من الاحلام أيضا .. مرحلة من الظلام .. والعدم .. وهوة بعيدة الغور .. ومساحة مشطوبة من الحياة .. ليس فيها وعي ولا زمن .. ولا مكان .. العشر ساعات تمر فيها كلمح الطرف بين غمضة العين وانتباهتها .. بدون احساس بالمدة .. وكان خيط العمر قد انقطع فجأة .. كما يحدث حينما نقطع أشرطة التسجيل ثم نوصلها من جديد ليستمر سياق الكلام كما نريد .

السياق الزمني في النوم غريب .

انه زمن آخر غير زمن الساعة .. فالحلم قد يحتوي على أحداث سنة كاملة بتفاصيلها من حب الى زواج الى طلاق الى جريمة ومع هذا لا يستغرق بحساب الساعة اكثر من ثانية ..

والعكس يحدث أحيانا فتمر على النائم عشر ساعات وفي ظنه أن عقرب الساعة لم يتحرك الا دقائق معدودة ..

الزمن يتخلص من قيود الساعة أثناء النوم .. ويخضع لتقدير آخر هو تقدير المخيلة التي توسع وتضيق فيه على حسب ازدحامها بالحوادث والرغبات .

انه من صناعة النائم وخلقه .. فهو ذاتي صرف ..

النائم كالفنان الذي يؤلف قصة . يخلـق زمـن القصة كما يريد .. ويعيش في قمقم خرافي من اوهامه .. يتمطى فيه ويصرخ بالرغبة التي يحبها . في حريه مطلقة تصل الى حد العبث .

ومعظم احلامنا عبث في عبث .. وامنيات مستحيلة .. ولكننا نعيشها كما نريدها ونحن نائمون .

* * *

والنوم ارخص انواع الحياة من حيث الكلفة .. فمقـدار السكر والاكسـوجين الذي يحتاجه النائم ليستمر في الحياة اقل بكثير من المقدار الذي يحتاجه في اليقظة .

والانسان الذي يعيش مائة سنة بين نوم ويقظة يستطيع ان يعيش ثلاثمائة سنة اذا عمل على حسابه ان ينامها كلها .

* * *

ومادة النوم رخيصة .. لأن الانسان يقترب فيه من التراب.. ويعود الى الآلية الكيميائية المتأصلة في خلاياه من بداية الحياة ..

كيميا الحياة

بين الحياة والموت .. خيط رفيع

حينما دبت الحياة على مسرح الدنيا منذ ملايين السنين .. كان المسرح يختلف كثيرا عن حاله الآن .. كانت الأرض ساخنة والجو مثقلا بالبخار .. ولم يكن الاكسجين بهذه الكثرة وانما كان نادرا .. وكان الغاز المنتشر بكثرة هو الايدروجين والنوشادر والميثان واول اكسيد الكربون .. وكا ومض البرق وقرقعة الرعد والضوء فوق البنفسجي والاشعاع الذري والشحنات الكهربائية العالية لا تنقطع .. وكانت المياه تغمر مساحات واسعة في برك ضحلة .. ولم تكن المياه صافية رائقة يطفو عليها الطحلب الاخضر كمياه الغدران الآن .. وانما كانت مياها عكرة كثيفة كالحساء مليئة بأملاح الفسفور والكالسيوم والصوديوم والبوتاسيوم والحديد والكبريت ..

في هذا المسرح الكيميائي النشط .. بدات الحياة .. ولهذا

لا بد لنا ان نتكلم قليلا في الكيمياء .. ولا بد للقارىء أن يتحمل معنا عناء رحلة في مجاهل علم الكيمياء .. اذا اراد ان يعرف سر وجوده .

* * *

استطاعت المعامل ان تثبت ان مادة الحياة واحدة تقريبا في كل الكائنات الحية .. وان الفوارق بين تركيب لحم الحمار ولحم البني آدم ولحم الحشرة .. فوارق طفيفة لا تذكر .. وان كل المواد التي تتألف منها البنية الحية لا تخرج عن كونها سكريات ونشويات ودهنيات وبروتينيات .

واثبتت المعامل ايضا أن هذه المواد جميعها هـي تعقيدات مختلفة لمادة واحدة هي الايدروكربون .. كل المواد الحية مشتقات من مادة هيدروكربونية .. من غاز الميثان .. وهو غاز يتألف من الكربون والايدروجين .. فما هو الشيء السحري الذي جعل مادة الكربون بالذات هي المادة المختارة لنشأة الحياة .

السر ان هذه المادة قلقة غير مستقرة .. غير مشبعة .. فيها قابلية لا نهائية للارتباط بعدد لا نهائي من المركبات والمبادلة عليها بذراتها في كل وقت ..

وقد ثبت ان المواد المستقرة التي يسمونها في الكيمياء المواد النبيلة كالذهب والبلاتين وغاز الهليوم والأرجون والكربتون .. كل هذه المواد ظلت موادا عاطلة خاملة مثل الأمراء الخاملين .. بدأت وانتهت على حالها دون ان تعطي امكانيات جديدة .. والسبب أن ذراتها مشبعة متوازنة مستقرة لدرجة الموت .. ولهذا لم يدخل اي واحد من هذه العناصر في تركيب الجسم الحي . وانما اختارت

الحيـــاة مادة واحدة بعينها شديدة القلق ناقصة غير مشبعة كثيرة الانفكاك والارتباط بالمواد حولها لتكون مستقرا لها .. هي مادة الكربون لانها مستودع لطاقة كيماوية لا نهائية ومحل لتفاعلات لا آخر لهـــا ..

انها هي ذاتها فيها صفات الحيـــاة .. الفاعليـــة والتحول والتكاثر والتعقد ..

ان مفتاح الحياة هو .. الكربون .. لأنه مادة جائعه غـــير مشبعة تنقصها اربعة الكترونات في مدارها الذري لتصل الى الراحة والتوازن .. ولهذا فهي دائما تدخل في علاقات وتفاعلات محاولة الوصول الى هذا التوازن .. وتكون نتيجة هذه التفاعلات متتاليات كيميائيـــة لا حصر لها .. تبدأ من غاز الميثان .. الهيدروكربون .. الى المواد الكربوهيدراتيـــة كالسكريـــات والنشويات .. الـــى الجلسرين والدهون .. الى البروتينات .

كل هذه المتتالية الحية هي تعقيد واشتقاق من مادة واحدة هي الكربون او الفحم ..

وقد قام ميللر بتقليد ظروف الحياة الأولى في المعمـــل فأحدث تفريغا كهربائيا في جو خال من الاكسجين وبه ميثان ونشادر وبخار ماء .. فكانت النتيجة مجموعة مدهشة مـــن المركبـــات العضوية تشتمل على الأحماض الأمينية .. وهي نواة البروتينات .

واختيار الحياة لعنصر الكربون بالذات لتتخذ منه الطوب الذي تبنى به معمارها اختيار فيه حكمة .. لأن الكربون عنصر نشيط .. احتمالاته الكيميائية لا حصر لها .. وقد ثبت بالحساب أن الجزىء الذي يحتوي على عشرين ذرة من الكربون يمكنه ان يعطي مليون صورة لتركيبات جديدة .

انه عنصر مثل الحياة مفتوح على آفاق لا نهائية .. ذرة تزيد وذرة تنقص في الميثان تؤدي الى تركيب الكلوروفورم .. الكحول .. النفتالين .. البنزول .. الفينول .. الخ .. ملايين المواد الممكنة .

وكل مادة عضوية لها تعقيدات .

سكر القصب وسكر الفاكهة وسكر الشعير كلها تعقيدات لسكر العنب البسيط الجلوكوز .

وزيت الزيتون وزيت بذرة القطن وزيت الفول السوداني وزيت السمك وشحم الخنزير وشحم البقر .. كلها تعقيدات للجليسرين والأحماض الدهنية ..

ومادة الأظافر ومادة الجلد ومادة الشعر ومادة العظم والغضاريف والعضلات والأعصاب والدم والريش والاجنحة وقشر الحشرات وزلال البيض والهرمونات .. كلها تعقيدات واشتقاقات مختلفة من المادة البروتينية ..

وانواع البروتينات في جسم الانسان تبلغ مائة ألف نوع ..

والسر في هذا التنوع الواسع هو في طبيعة المادة الحية نفسها ..

أن البروتينات التي تتألف من ٢٤ حامض اميني يمكنها أن تعطي امكانيات مثل التي تعطيها حروف الهجاء الـ ٢٦ .. يمكنها أن تعطي الوف الكلمات وملايين الجمل .. كل جملة تختلف عن الأخرى لان تحت يدها ٢٤ حرفا كيميائيا تصنع منها تباديل وتوافيق ..

وأهم مادة حية هي البروتين لان جزيء البروتين ثقيل فيه اكثر من خمسة آلاف ذرة في المتوسط .. متعدد الاحتمالات لدرجة مذهلة .

وذرات المادة البروتينية لا تعطي فقط امكانيات متعددة

للتوليف الكيميائي .. ولكنها ايضا في التحامها تصنع اشكالا متعدده من الالتحام . فهي تكون ملضومة احيانا على شكل مجمعات كروية واحيانا على شكل سلاسل حلزونية .. واحيانا على شكل حبال مبرومة كاسلاك التلغراف وفي كل مرة تؤدي الى شكل تركيبي جديد في وظيفته وطعمه وملمسه مع ان التركيب واحد في الكل ..

* * *

والسؤال التاني الذي خطر ببال الكيميائيين هو الماء .. سر الماء ..

لماذا تبدو الحياة كأنها منتوعة كلها في الماء .

لماذا يؤلف الماء معظم النسيج الحي .. ولماذا يدخل كشرط في كل بنية حية ..

لقد تعودنا ان نتعلم في المدارس أن الماء سائل لا طعم له ولا لون ولا رائحة . وهذه أكذوبة كبرى .. لأن الماء هو اكثر السوائل نشاطا لأن تركيبه هو الآخر تركيب قلق غير مستقر غير مشبع .

اثبت الفحص الذري للماء أن ذرة الايدروجين في جزيئه عاريه بدون الكترونات .. ولهذا كانت شديدة الشوق الى استعارة الكترونات من اي مادة تلامسها .. وهذا سر قدرة الماء على اذابة المواد والتفاعل معها وتحليلها الى ايوناتها .

الماء ليس خاملا .. وليس عديم الطعم .. عديم النشاط .

الماء توازنه الكهربائي ناقص .. ولهذا فهو يروي من العطش ان له طعما حيويا ..

بدليل أن الماء الثقيل المشبع لا يروي .. واذا شربت منه صفيحة فانك لا بد هالك عطشا .

والماء له فعل آخر .. انه يحول مادة البروتين الى كتل غروية

جيلاتينية في حالة تماسك كهربائى لا هو بالتجبن ولا هو بالتخثر .. وبهذا يصنع خامة حيه شديدة الحساسية لتقلبات البيئة وهذه صفة اساسية في الحياة .. شدة الحساسيه وعدم الثبات والقلق والتغير والتحــول .

هذا البحث يتبت لنا في النهاية ان ماده الحياة فيها حياة .. فيها صفات الحياة .. وان نشأة الحياة من مركبات الكربون والماء لم تكن مصادفة .. وان الحياة لو لم تنشأ من الكربون لنشأت من الكربون .. وأن الاحتمال اكبر من ان يكون مجرد خبطة عشوائية .

انه ضرورة ..

وهذا يجعلنا نسأل .. ما هي المادة ..

وما حقيقتها .. !! ؟

التراب

ان ذرة التراب.ليست شيئا تافها ..
ان فيها حركة .. وفيها نبض ..

هل المادة شيء جامد فعلا ؟!! ..
هل هي كتلة من السكون والهمود والموت .. عديمة النشاط والفاعليـــة ..
لا ..
ان هذه كذبة ..
وكلمة جماد نفسها اكبر كذبة ..
ان الجماد في حقيقته غير جامد ولا حتى سائل .. انه مخلخل من داخله ومؤلف من منظومات هائلة من الذرات والجزئيات تسبح في فراغ اثيري ..
والجزىء هو معمار من الذرات ..
والذرة نفسها معمار جميل من جسميات صغيرة نووية تدور حولها كهارب غاية في الصغر منتظمة في افلاك .

والذرات والجزيئات مترابطة مع بعضها بقوانين من الجذب والتنافر تشدها الى بعضها دون ان تسمح لها بأن تصطدم ببعضها وتذوب وتفقد شكلها وشخصيتها ..

انها كالشمس ومنظومتها الكبرى من الاقمار والكواكب .. تترابط بالجاذبية .. ولكنها جاذبية لا تزيد الى القدر الذي يؤدي الى تلاحمها وفنائها في بعضها .. وانما هي جاذبية يعادلها تنافر يؤدي الى احتفاظ هذه الاجرام السماوية بأشكالها وشخصياتها ..

وهي تدور حول بعضها .. كما تدور كهارب الذرات .. وكما يدور كل شيء في العالم حيا وميتا .. جامدا وسائلا وغازيا ..

ولا فرق بين جامد وسائل وغازي ، الا في سرعة الدوران .. السائل ذراته اسرع .. والغاز ذراتـــه اسرع جـــدا .. ولذلك تتفكك جدا وتصبح هباء منثورا .. أو بالتعبير الساذج .. هواء .

ان ما يبدو من شكل التراب على انه شيء عشوائي فوضوي غير مرتب بلا شكل ولا نظام .. هو مظهر غير صحيح .. فالتراب في ادق دقائقه فيه نظام .. وله شكل .. وله ترتيب وتفصيل . وفيه حركة مبثوثة في ذراته ..

وكل شيء في الكون له صورة ونظام وتفصيل وفيه نبض ..

وهنا يبدو الفاصل بين الحي والميت فاصلا رفيعا .. وهـــو يزداد شفافية كلما نظرنا بتعمق في طبيعة المادة ..

فالمادة ليست في حالة حركة فقط .. وانما هي في حالة حركة هادفـــة أيضا ..

ان ذرات الكربون غير المشبعة تتحرك هادفة نحو التشبع والتوازن وتعقد علاقات وتراكيب وتفاعلات مع المواد الاخرى بهذا القصـــد ..

ومعنى هذا ان تركيب المادة فيه نظام وحركة وهدف ..

وليس هذا فقط بل ان تكوينات المادة فيها طابع الشخصية والتفـــرد أحيانا .. وهي تلتزم طابعها وتحافظ عليه .. فمادة كبريتات النحاس تنظم نفسها في بللورات محددة ذات شكل محدد وهي تجدد نفسها في المحاليل بنفس الشكل دائما .. وهي تنمـــو في المحاليل واذا قطعت بللورة منها الى جزءين فان كل جزء ينمو محتفظا بطابعه .

واغلب المواد العضوية وغير العضوية لها بللـــورات مميزة تعرف بها كما يعرف الاشخاص ببصمات أصابعهم ..

الحديد له بللورات .. والنيكل له بللورات .. والسليكا لها بللورات .. والصخور — من كل نوع — لها بللورات ..

والذي شاهد هذه البللورات تحت الميكروسكوب يشهد ان فيها جمالا هندسيا قد استوقفه طويلا ..

ومعنى هذا ان المادة الجامدة الميتـــة .. فيها حركـــة .. واستهداف نحو التوازن .. والنظام .. والجمال .. والتفرد .. والتبلور ..

وهذه الصفات تكسر السد القائم بـــين الحياة والمـــوت .. وتكشف عن صلاحيات الحياة في المادة الجامدة الميتة ..

انها لا تصبح مادة فارغة مهوشة .. وانمـــا تصبح منظومة لها صـــورة .

والفرق بين الحياة والموت يصبح فارقا في الدرجه .. فارقـــا في درجة التعقيد .. وفي درجة التركيب .. وفي درجة الانتظام في صور منفـــردة .

إن منظومة الحياة هي منظومة غاية في تعقد التركيب وغاية

في التخصص .

ولكن امكانيات هذه الحياة الرفيعــة المتخصصــة باطنة في المــادة ..

ولا يعني هذا أن الحي ميت .. والميت حي .. وانما يعني ان الصلة غير مقطوعة بين المادة الحية والميتة .. يعني ان العالم متدامج في وحدة ومنبثق من اصل واحد وطبيعة واحدة يعنــي ان الروح مبثوثة فيه كله .. والعقل باطن في كل تضاعيفه .. بشكـل حمله كله مصورا في تراكيب وانماط وقوالب وطرز فيها نظام وقانون وجمال .. ومهما بلغت الفروق بين هذه القوالب والطرز والانماط الحية والميتة .. فان التعمق في فهمها يردهـنا جميعا الـى أصلها الواحد وجذعها المشترك الذي انبثقت منــه .. انه يكشف عـن تشابهها جميعا .. ووحدتها الجوهرية .

ان الكون يمت لبعضه بصلة القرابة .

نحن والشمس والقمـر والثعبان والميكـروب أولاد عمومة واحــدة ..

وحينما كشف داروين عن تأصل الأنواع جميعها في نظريته عن التطور .. ضحك عليه الناس .. كيف يكون القرد والانسان أولاد عمومة واحدة .

ولكن داروين برهن بالدراسة التشريحية أن المسالــة ليست نكتة وان التركيب التشريحـي والسلـوك الوظيفـي للحيوانات والنباتات والأحياء جميعها يسلكها في عقد عائلي واحد .

وداروين لم يكن يحلم انه بعد أن يموت ويشبع موتـا سوف تستجد براهين اكثر خطرا من براهينه عن تأصل الأنواع ..

ولكن هذا هو ما حدث .. ففي المجال الكيميائي ثبت أن كل

الأحياء ذوات نسيج تركيبي واحد .. كلها منظومات كربونية ..

وثبت ايضا أنها تحمل شبها تفصيليا اكثر دقة .. فجميعها مؤلفة من جزيئات ذات ترتيب يساري ..

ثم كشفت الدراسة التفصيلية للذرة عن تشبهات أعمق في الكون كله .. احيائه وأمواته .. فالكون كله منظوم نابض هادف فيه جمال وقانون وايقاع بديع ..

وبهذا امتدت صلة القرابة التي كشفها داروين بين الأحياء فاشتملت على الأموات أيضا وسلكت الكون كله في وحدة واحدة .. وجوهر واحد .. واصبح الفارق بين شكسبير وهو يبدع اشعاره وبين المحار وهو يبدع صدفته وبين المادة الجامدة وهي تبدع بللوراتها الهندسية .. فارقا في الدرجة ..

* * *

الكون هرم يتربع الانسان على قمته .. ولكن في كل حجر من حجارة الهرم مرحلة من هذا النظام البديع الذي كان تتويجه النهائى الانسان .

وهو تتويج مؤقت .. لأن الوجود دائب على الابداع وسوف يعلو الى ما هو اكثر تفوقا ونظاما وروحا من الانسان ..

اني حينما ادرت بصري في الكون من اصغر ذراته الى اضخم شموسه ومن أدنى ميكروباته الى اسمى مخلوقاته .. ومن ترابه الى ذهبه وماساته ولآلئه .. وجدت النظام .. والجمال .

ان الله متجل في الكون كله ..

رأس النملة

حتى الوردة فيها عقـــل ..

اسمعوا .. هذه ليست نكتة ..
ان الوردة فيها عقل ..
وسنبلة القمح فيها عقل ..
وشجرة البلوط لها عقل .. وان كان عقلا تخينا مثـــل جذعها التخـــين .

ان حركة زهرة عباد الشمس وهي تلوي عنقها لتتجه نحـــو الشمس لا تختلف كثيرا عن حركة النحلة وهي تطـــير محلقة الى الحقل لتجمع العسل .. ولا عن معركـــة الانسان الواعيـــة وهو يطير ليقتحم المخاطر مستهدفا رسالة سامية ..

أن بين الثلاثة ترابطا حيويا .

ان الثلاثة منظومة متصلة الحلقـــات الفارق بينهـــا فارق في الدرجة فقط ..

ان حركة زهرة عباد الشمس في بساطتها .. عقل .. فما

هــو العقل ..

انه قدرة تصرف وتكيف بالبيئة ..

انه في كلمات قليلة بسيطة .. القدرة على اتخاذ موقف انتقائي اكثر ملائمة للحياة في كل لحظة .. والزهرة حينما تلــوى اوراقها نحو الضوء تتخذ موقفا انتقائيا أكثر ملاءمة لحياتها .. انها تتحرك حركة عاقلــة ..

ومعنى هذا ان العقل ليس شيئا جديدا في الانسان .. انه في الطبيعــة الحيــة كلها ..

كل الفرق ان الانسان لديه وسائل اكثر يتصرف بها ويحتال بها على بلوغ اهدافه ..

الانسان بحكم كونه مخلوقا معقدا يملــك أجهزة متعددة كل منها على درجة فائقة من التخصص .. فهو يملك يدين فيهما عشرة اصابع .. ويملك لسانا ناطقا .. ويملك عينين مبصرتــين وأذنين حادتين .. وبشرة حساسة .. وأنفا شماما . وكل هذه الاجهزة في خدمة عقلــه ..

الانسان حيوان اقطاعي عنده عشرة آلاف فدان من المواهب وعمارات من الأعصاب والحواس المرهفة ..

وهو لهذا ظلم نفسه وظلم غيره من المخلوقات حينما اعتبر نفسه الوحيد العاقل بينها .. وهذه خرافة اقطاعية غير صحيحة .

العقل باطن كامن في كل الطبيعة الحية ..

ومنذ أن نبضت الحياة في الأميبا الحقيرة ذات الخلية الواحدة وحركة هذه الأميبا فيها كل الحذر والتلصص والخبث وسوء النيــة التي في الانســان .. لا جديد في الانسان .. وانما هنــاك التكامل

فقط .

* * *

والنفس ..

ما النفس ..

ما الغرائز ..

انها الحوافز البدائية التي كانت تحفز الحيوان ليسعى في حياته ومعاشه ..

الجوع الذي يحفزه الى الطعام .. والعطش الذي يحفزه الى الشراب .. والجنس الذي يحفزه الى التلاقح والتكاثر ..

وهي نفس الحوافز التي نشأت منها الحوافز العصبيةالمتعددة في الانسان .. الطمع والخوف والجزع والغضب والكراهية والحب .. وهي مثلها .. مجموعة اشعارات وانذارات عصبية عن حاجات البدن الملحة الضرورية .

وعيب فرويد انه وقف عند هذه الاشعارات والغرائز والحوافز واعتبرها مفتاح شخصيـــة الانسان ومفتاح سر الحياة ولغزها ..

ولكن الحقيقة انه لا الغرائز النفسية .. ولا حــتى المنطق العقلي .. يمكن ان يصلح مفتاحا لسر الحياة ..

الحياة لا يمكن تفسيرها بأنها رد فعل غريزي لطلب الطعام والجنس ولا يمكن تفسيرها بأنها تصرف منطقي للتكيف بالظروف .

هذه صفات في الطبيعة الحية .. ولكنهـــا ليست مفتـــاحا لسرها ..

الحياة ليست محفوزة من الخلف .. وليست منخوســـة من

ورائها بمنخس الغرائز .. وانما هي واثبـــة متطلعة الى الامام بفطرة ارشادية عالية وبعاطفـــة مبثوثة في خـــلاياها واعصابها وقلبهـــا .

الحياة ليست مدفوعة من المـــاضي .. ولكنها مرتمـــية في المستقبل بفطرة توجيهية باطنة فيها ..

الحياة ليست مقهورة بقضاء محتوم يدفعها مـــن خلفها .. وانما هي رشيدة مختارة بصيرة تنتقي لنفسها على الدوام ناشدة هدفا في الغـــد .

ان فيها مثيرات باطنة ترتفع بها فوق نفسها .. انها تتحرك بكامل صحتها وشعبها طالبة مستوى فوق مستوى حياتها الروتيني المتكرر المتشابه .

ان حب الجمال والخير والحق هو في النهاية احـــد المثيرات والمغريات المتأصلة في الصميم الحي .. وليس هناك فارق كبير بين قدرة شكسبير على افراز الأشعار .. وقدرة المحار عـــلى افراز اللآلىء .. وقدرة خلايا الفراش عـــلى رســـم الزخارف البديعة الجميلة على واجهة أجنحته ..

ان الفراش لم يكن بحاجـــة حيويـــة ملحة الـــى رسم هذه الزخارف .. فالأجنحة كان باستطاعتها أن تقـــوم بوظيفتها بكفاية ومهارة دون ان تكون منقوشة .. فما السر في نقشها ..

اذا قلنا انها مثيرات جنسية وان الانثى تتجمل للذكر .. فان السؤال يظل مطروحا .. ولماذا يختار الذكر الانثى الأجمل .. ان الجمال سيظل يفرض نفسه كهدف .

والسر هو نفس السر الذي جعل شكسبير يتغنى بالشعر .. انه ليس اكل العيش وانما هي مثـــيرات الجمـــال .. ومغريات

الابداع في طبيعة شكسبير .. وفي طبيعة الفراش .. وفي الطبيعة الحية كلها ..

في جرثومة الخلية الاولى بذرة كل هذه الاسرار الجمالية ..

الخلية التي بدأت حياتها بنشـدان درجة معينة من الحرارة والجو والغذاء ملائمة لانتعاشها وتكاثرها كانت تضمر في جوفها غايات ابعد وهي ما لبثت بعد ان ملكت ناصية حياتها في عقل الانسان أن أفصحت عن هذه الغايات البعيدة فبدأت تنشد الجمال والحق والخير والعدل والسلام .

ان المثل العليا تحت الجلد ..

والقيم الرفيعة في نسيج البروتوبلازم ..

وتفسير الانسان على انه جسم فقط .. او نفس فقط .. او عقل فقط خال من مثيرات الروح والوجدان .. تفسير ناقص يهبط بالانسان الى مستوى عداد منطقي وآلة حاسبة رياضية ويسلب الوجود الانساني نكهته وطعمه وحرارته .

ان زهرة عباد الشمس .. حتى زهرة عباد الشمس .. تتطلع الى الشمس ..

ونباتات الصبار .. حتى نباتات الصبار .. تخرج تصانيف جميلة كأنها منحوتة بيد نحات فنان عاكف على ابتكار افانين الجمال ..

والنحلة .. حتى النحلة تبني بيتها في معمار هندسي بديع .. الطبيعة الحية ليست طبيعية جائعة جنسية ولكنها ايضا طبيعة متفننة عاقلة متطلعة حالمة ..

والمثل العليا والاهداف والاحلام والمأمولات الراقية الرفيعة ليست اشياء انفرد بها الانسان .. انها في الصميم الحي كله ..

ان غرورنا فقط كحيوانات اقطاعيه امتلكت أوسع الثروات من الاجهزة والحواس .. هو الذي صور لنا هذه الخرافة ..

ونحن من فيضان هذه الثروة علينا .. بدانا نفيض بقدراتنا على البيئة حولها .. ونبث فيها نظامنا وقانوننا ونخلق منظومات وانماطا جديدة .. فنبنى البيوت والأبراج والمدن والمصانع .. ونبتكر عمارات من الشعر والنغم والالوان .. ونخترع شرائع وقوانين ودساتير ونظما .. ونسينا في غمرة هذا الطوفان من الثراء .. ان كل هذه النعمة هي التركة التي انحدرت الينا من اجدادنا الحيوانات .. وأنها قبل ان تصل الى راسنا .. كانت في راس النملة .. وكانت في لحاء الشجرة .. وكانت في لباب الاسفنج .. وفي عصير الصبار المر ..

وهذا يعني أن معجزة الحياة ليست في مخلوق بعينه .. ولكنها في النسيج الحي نفسه .. اينما كان هذا النسيج نباتا او حيوانا او انسانا او خلية تدب في مستنقع ببطء وعماء دون أن ترى ودون أن تسمع .. في البروتوبلازمة .. في هذه الجيلاتينة الهلامية كأنها الماظية مرشوقة بالسمسم والفستق ..

والذين شاهدوا البروتوبلازمة تحت الميكروسكوب يعرفون انها تتحرك وأن حبات السمسم والفستق فيهما تدور وتدور حول بندقة صلبة في وسطها هي النواة .. وانها احيانا لها جدار يحفظها .. واحيانا لا يكون لها جدار .. وانما تكون بضعة هلامية سائبة رخوة تتلوى كبقعة زيت سميكة في الماء ..

أنا س٣ وانت لوغاريتم س ١٩

اكتشفنا أثناء هذه الرحلة من التفكير والتأمل .. ان الانسان كائن مركب .. وانه ليس شيئا بسيطا محددا مثل الكرسي والمائدة والمحبرة وانما هو حقيقة نامية متطورة تتقرر كل لحظة .. تتقرر من الداخل .. بارادة خاصة .

وانه يمكن أن يعيش على مستويات عديدة ..

يمكن أن يعيش حياة كثيفة غليظة منحطة كحياة النباتات .. كما يحدث أثناء النوم .. فيتضاءل الى مجموعة وظائف تحدث في آلية وتلقائية بدون وعي ..

ويمكن ان يعيش حياة ثرثارة مألوفة مبتذلة .. تقوده افكار جاهزة وعادات موروثة وتحركه تقاليد قديمة متبعة .. وتصدر افعاله مضبوطة بمواعيد يحددها له الناس بالساعة والدقيقة .

ويمكن أن يعيش حياة عميقة يرتد فيها الى نفسه وينقاد لأفكاره ورغباته ويحيا في زمنه الخاص وتوقيته النفسي الصادر عن ارادته

وعاطفته .. وفي هذا المستوى نكـون حياته اصيلـه .. وتكون انفعاله مدلولات مباشرة لشخصيته .

ويمكن ان يبلغ اعمق اعماق وجوده في لحظة الحب .. ولحظة التامل ولحظة الابداع .. ولحظة التصوف .. فينفتح شعوره على احساس بالدوام والأبدية .. ويتذوق لحظة غريبة لا زمنية .. لا شخصية .. لحظة عميقة .. تذوي كل اللحظات وتنتهي كل الايام وتنصرم السنين .. وتبقى تلك اللحظة شاخصة في ذاكرته عالقة بوجـدانه ..

هذا الشعور يدل على أن الانسان مفتوح من الداخل علـى وجود من نوع آخر غير الوجود الخارجي الجامد المحدود الزمني الآلي الذي يرسف في الحتمية والقوانين .. وجود حر يتدفق في لا مكان ولا زمان ويصدر عن لا اسبـاب .. وجود تقويمـه فيه .. وأسبابه فيه .. وجود تصدر عنه الارادة والشخصيـة والسلوك والفعل .. ويبدو العالم الواقعي جزءا منه ونتاجا من نتائجه ..

وجود عميق مثل النبع الخفي تضرب فيه جـذور الانسان وأعصابه وتستقي منه وجودها واحساسها بالحقيقة .. واحساسها بالاستمرار في دوامة الواقع المتقلب المتغير .. وتستمد منه الشعور بأرض ثابتة وسط هذه الظواهر المفككة التى تبرق وتختفـي .. وتستمد منه الثقة بأن هناك أمانا .. وسكينة وطمأنينة ..

وجود ابدي تبدو فيه الحياة الزمنية حقيقة لمجرد انها مستمدة منه منتميـة اليـه .

والنفس لائذة على الدوام بهذا الوجود الداخلي .. لاجئـة اليه .. من القلق وخراب الأعصاب الذي يحدثـه الواقع المـادي بتقلباته وتغيراته .

وهذا هو وجود الـ انا المطلق .. او الابدية .. او الحقيقة .. او الروح ..

ولا أقصد الروح بمعنى الشخصية .. فهذا الوجود غير شخصي .. وهو اعمق من ان يكون شخصيا .. واعمق من ان يكون متعينا محددا .

ان الواقع المتعين المقسم الى حركات وانتقالات في الزمان والمكان .. هو واقع الزمان والمكان .. واقع الظواهر فقط .. اما الوجود الداخلي فهو وجود جوهري لا يقبل القسمة ولا يقبل التعدد .. انه حقيقة كل هذه الظواهر وينبوعها .. وهو منبع الشخصية ولكنه ابدا ليس الشخصية .

والحقيقة بسيطة وواحدة وكل ما نشاهده حولنا من تعدد وتباين واختلاف غير حقيقي وظاهري ومؤقت .. بدليل انه يمت الى بعضه .. وينتمي الى بعضه .. ويخفي تحت تعدده الظاهر وحدة اصيلة ينبع منها ..

وقد اكتشفنا اثناء هذه الرحلة الفكرية ان كل المخلوقات هي مجرد تصانيف وتواليف مختلفة من مادة واحدة هي البروتوبلازم ووحدات دقيقة متراصة هي الخلايا .. كلها تصانيف وتواليف من (س) .. وس هذه اشبه بالمادة عند ماركس والهيولا عند ارسطو .. انها الخامة الاولية التي بنيت منها الدنيا .

وحتى صنوف المادة الميتة هي الاخرى تواليف مختلفة من مفردات بسيطة هي الالكترونات والبروتونات وهي شحنات سالبة وموجبة من الطاقة .. مرة تبدو هذه الطاقة في شكل حرارة .. ومرة في شكل ضوء .. ومرة في شكل كهرباء .. ومرة في شكل مجال مغناطيسي .. ومرة في شكل حركة .. ومرة في شكل

حيـــاة .

والعناصر المختلفة من رصاص وصوديوم وحـــديد ونحاس وكبـــريت ما هـــي الا تواليف مختلفـــة من هـــذه الالـــكترونات والبروتونات .. وفي الامكان تحويل عنصر الى آخر بتغيير توليفته الذريـــة .

ان كل التباين والمفارقة والاختلاف بين الموجودات هو اختلاف شكلي ظاهري قابل للاختـــزال في النهاية الى اصـــل بسيط واحد مشترك .

ان في باطن هذا الكون حقيقـــه واحدة بسيطـــة .. جوهرا واحدا .. جذرا نبت منه كل فرع من فروع هذه الشجرة .. وكل فرع حقيقي بقدر ما يفصح عن أصله .. وبقـــدر ما يحمـــل طابع وراثته في خلاياه وازهاره .

حتى الكواكب والنجـــوم والشهـــب والمذنبـــات ما هي الا تصانيف مختلفة من المادة نشأت من سحب من الـــذرات والغبار كانت سابحة في الفضاء .

الوجود منتجات لا نهائية .. وصور لا نهائية من أصل واحد وحقيقة واحدة بسيطة ازلية أبدية محتواها غنى لا نهائي .. يتخلق في قوالب لا حصر لها .. وتعدد المخلوقات والموجودات هو الدال على هذا الثراء والغنى اللانهائي .

والتعدد هو تعدد في الواقع وفي الظاهر وفي العالم المرئي .. لكن الخامة الأصلية واحدة .. بسيطة .. وانما الأشخاص هم الذين يتعددون .. كل شخص هو بذاته توليفة فريدة من هذه الخامة الواحدة .. ولكنه فان في النهاية ..

وكل متعين فان ..

وكل موجود في الزمان والمكان فان ..

كل شكل وكل تركيب ينهدم كما تنهدم عمارة مبنية من الطوب والجير والأسمنت .. لكن يبقى المشروع .. يبقى الرسم الهندسي والتصميم الأصلي الذي اقيمت العمارة على وفاقه .. وهو « الصورة » عند ارسطو .. والروح عندنا .. والا انا المطلق في الفلسفة .

وهذا الرسم الهندسي والتصميم الأصلي هو من ابداع الخالق ومن روحه وهو نفحة منه ولهذا لا يموت .

وهذه الروح .. وهذا الا انا المطلق .. الذي ليس شخصا بالذات .. ولا نفسا بعينها .. هو الذي يهمس في داخلنا بدهشة حينما يرى الموت .. ولا يصدقه .. ولا يعبأ به .. لأنه غير ذي موضوع بالنسبة له .. ونحن حينما نفزع من الموت .. نفزع على هذا الا أنا المطلق .. على هذا الاحساس العزيز الحميم الذي يربطنا بالواقع وبنفسنا .. ولا موجب للفزع .. لأن هذا المطلق في منطقة أبدية لا موت فيها .. ولا تغير .. ولا تبدل .

ان الذي يموت فينا .. هو ما يموت كل يوم .. ويتغير كل يوم .. اجسامنا .. نفوسنا .. شخصياتنا .. كل هذا يموت .
لانه يموت بالفعل .. يموت بالحياة .. ويتغير .. ويتبدل .

اما الروح .. اما الا انا المطلق .. فهو حي أبدا .

نحن مفتوحون من الداخل على هذا الواحد المطلق .. اللاشخصي .. اللامكاني .. اللازماني ..

وبالنسبة لهذا الا أنا المطلق .. لا معنى للموت أو الفناء أو التغير .. أو التبدل ..

انه كنز لا نهائي . وثروة مطلقة .. تصدر عنها افعالنا

واشخاصنا وحياتنا .. ثم نموت .. ونشبع موتا .. ويبقى هو في عالم الروح الذي انبعث منه .

ولأننا مفتوحون من الداخل على هذا المنطلق .. يداخلنا الوهم باننا نحن ايضا لن نموت ..

* * *

وهذا هو الالتباس الطبيعي الذي نقع فيه بسبب حياتنا المزدوجه .. وطبيعتنا المزدوجة من جسد وروح .

اننا كنبضات منفعلة يخيل لنا أن لنا كيانا حقيقيا مستقلا عن القلب الدائم .

ان صدورنا من الروح الخالدة وانتماءنا لها بحكم الأصل يوقعنا في هذا الوهم .. ولكننا فانون .. ونحن في حالة فناء متصل حتى ونحن على قيد الحياة .. وخيط الكينونة الذي يربط لحظاتنا ويمسك بتحركاتنا المفككة في المكان .. هذه الوحدة المتجانسة التي تسري فينا وتمسك بوجودنا غير المتجانس ليست من عالم الزمان ولا من عالم المكان .. وليست من العالم المشخص المتعين .. وليست منا بقدر ما نحن منها .

وهي وحدة ليست بذاتها متعينة .. وانما هي سياق مطلق غير متعين .. سياق يضم كل المواقف التي نقفها في حياتنا يضمها فيما يشبه الا انا المطلق الذي هو روح كل منا والذي هو شرارة من الروح الالهية العظمى التي هي ينبوع الخلق والتي صدر عنها الكل واليها يعود .

ولهذا نرى ان كل اشكال الوجود تمت الى بعضها بصلة القرابة الوثيقة .. هناك صلة رحم تجمعها جميعا في خامة مبدئية واحدة .

وعملية التبادل التي تحدث بين صنوف الموجودات في كل لحظة تكشف عن هذه الصلة العائلية بينها ..

النباتات تأخذ من الأرض أملاح الفوسفات والنترات وتأخذ من الهواء مركبات الكربون وبخار الماء .. ثم تحول هذه المواد المعدنية الميتة الى أنسجة حية خضراء مثل أنسجتها .

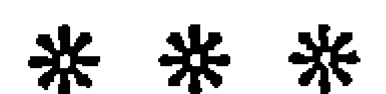
والحيوان يأكل أنسجة النبات ويحولها الى لحم ودم وعظم وعضلات ثم هو في النهاية يموت ويتعفن ويتحول الى تراب وأملاح معدنية ترتد للأرض الأم .

هذه الحلقة الدائرة تكشف عن الخامة المشتركة التي تخلقت منها كل هذه الاشكال المتعددة .

وبالرغم من الخلاف الهائل في المرتبة الحيوانية بين النمر المتوحش المفترس ، وبين الانسان الرقيق الوديع العاقل .. فان النظرة التي يتبادلها الاثنان في حلقة السيرك .. نظرة مروض الوحوش الى الوحوش وهي راكعة عند قدميه .. تكشف عن ذلك الشيء المشترك الذى يجمع الاثنين في رابطة خفية من الود والعاطفه .

بالرغم من كل الوحشية التي في النمر .. وكل الوداعة التي في الانسان .. يلتقي الاثنان في لحظة تعاطف وحنان .. وكأنهما تعارفا منذ الأزل .. حيث الخالق واحد ومادة الخلق واحدة .

وهكذا من خلف كل العيون يطل علينا جلال الخالق أقرب الينا من حبل الوريد .



الواحد الصحيح مختلف وراء التعدد .. والشبـه الأصيل مختف وراء الاختـلاف .. والارتباط الحميم مختف وراء التفكيك الظاهـر .

والوجود كله انشودة طويلة من ملايين الكلمـات تفصح عن روح الهية خالدة .. وعن معناها اللانهائي .. وثرائهـا الممتلىء أبدا بالامكانيات .

والموت معناه ان الخالق يقول لنا :

وعندي المزيد .. وعندي امكانيات اخري لا تنفد .. انظروا .. هاكم شيئا آخر تماما .. هاكم مفاجأة أخرى .. هاكم مولد طفل جديـد ..

الواحد الصحيح

كلنا من اب واحد

اكبر شيء في الدنيا هو الواحد الصحيح .

فهو يمكن أن ينقسم الى اثنين ثم الى أربعة وثمانية وستة عشر واثنين وثلاثين .. واربعة وستين ، الخ ، الخ الى ما لا نهاية فيعطيك كل الارقام التي خطرت وتخطر بذهن عمالقة الحساب من أيام اقليدس وفيثاغورس الى اينشتين .

انه واحد صحيح سيط ولكنه يحتوي في بطنه على جميع الأرقام وعلى اللانهاية .

وقد بدأت الحياة بواحد .. خلية واحدة انقسمت فأصبحت خليتين ثم اربع ثم ثمان ثم الوفا وملايين وبلايين تنوعت بحسب البيئات والظروف وخرج منها كل ما نرى حولنا من زواحف وطيور وفراشات وديدان وقردة وآدميين .

وقد بدأ الكون بغاز بسيط واحد هو الايدروجين .. هو الذي يشتعل الآن في باطن النجوم ليعطينا النور والدفء مع اشعة

الشمس كل صباح ..

ومن الايدروجين في باطن الأفران النجمية الهائلة جاء الحديد والنحاس والذهب والقصدير والرصاص والكربون والسليكون والزئبق واليود وكافة العناصر التي نراها متحدة ومنفصلة حولنا على شكل مركبات ومواد اولية وصخور ورمال .

ومن عجب أن ذرة الايدروجين هي الأخرى لا تحتوي الا على بروتون واحد والكترون واحد يدور حوله .

وكل ما يحدث في باطن النجوم أن هذه الذرة تتفتت لتعطي الضوء والحرارة والاشعاع ويعاد تركيبها في اشكال جديدة ونسب جديدة .. مرة ١ + ٢ ومرة أخرى ١ + ٣ ومرة ثالثة ١ + ٤ .. وفي كل مرة يخرج عنصر جديد الى الوجود .

وما نرى حولنا على الأرض من تصانيف الغازات والسوائل والجمادات ليست الا هذه التواليف التي نشأت كلها من قسمة واحد صحيح اسمه ذرة الايدروجين .

وانت واحد صحيح تبدو في نظر نفسك صغيرا ومحدودا ولكنك تستطيع أن تستوعب من المشاعر والمدركات والمعارف ما لا حد له .. فأنت أصغر من العالم بكثير ومع ذلك تحتوي على العالم في داخلك وتتصوره وتتخيله وتراه ..

على شبكية عينك نرتسم صورة واضحة ودقيقة للشمس والقمر والنجوم والمجرات ..

وفي عقلك تختصر هندسة الكون الى شفرة جبرية ومعادلات ورموز وأرقام .. وهي أرقام تثبت لنا كل مناسبة انها أرقام صحيحة ..

ما يتخيله الحاسبون على الارض من معادلات تثبته سفن

الفضاء والصواريخ والاقمار وتبرهن على صحته المراصد واجهزة الـــرادار .

ان ذلك الواحـــد الذى هو انت .. هو فعلا مشتمل علـــى هندسة الكون وسره ومفاتيحه ومغاليقه في داخله ..

انت الواحد والمحدود تحتوي على نمـــوذج مصغر للانهاية فيداخلـــك ..

وكل ما في الوجود من ظواهر ونبات وجماد وحيوان وانسـان هي في الحقيقة أجزاء الواحد الصحيـــح .. والشر والخـــير هما كالظل والنور في لوحة واحدة كل منهما مكمـــل للآخر وضروري لوحدة اللوحة ..

كل منا لحن وجملة موسيقية في سيمفونية متكاملة ..

الألم هو احساس الانفصال .

العذاب هو احساس الانفصال .

انت تتألم حينما تنفصل في انانية عن الكل وتنسى أنك حرف وسطر في آية الوجود الكبرى أما اذا توجهت الى الوجود في شعور حميم بالنسب والقرابة فانك ستشعر انك تستطيع ان تؤاخي الاسد وتصاحب ضباع الغاب وتروض الثعابين والافاعي فتلهو معك وتلهو معها وكأنها عائلتك .. وذلك أن الوجود كله ما هـــو الا الوجـــوه المختلفـــة للواحد الصحيح ..

كلنا اقربون ..

انت القاتل والقتيل ..

أنت الذئب والفريسة ..

انت الطاعن والطعين ..

وما فواصل المكان والزمان الا وهم الأوهام .

وعليك بعين وجدانك ان تخترق هـذه الفواصـل الوهميه لتكتشف الاخوة والنسب والقرابة بينك وبين كل شيء .. ولتكتشف ان حياتك الحقيقية هي في فنائك في هذا الكل الذي تعيش فيه .. لأنك بهذا سترد وحدتك وحقيقتك .

انت احد آحاد الأحد الاكبر . وما نعلن من حروب هي حروب نعلنها على نفسك ، وما تقتل حينما تقتل الا نفسك .

وما الحب بينك وبين الآخرين الا الحنين الى وحدتك الأولى .

وما الحب الذي يؤلف الأسر والقبائل والمجتمعات والدول الا محاولة للعودة بها الى الوحدة ..

وما الجاذبية بين النجوم التي تؤلف المجرات والكوكبات الا عودة بالكل الى نظام الواحد .. وفي النهاية الموت الذي يعيدنا ترابا الى امنا الارض ليتغذى علينا النبات كما كنا نتغذى عليه وليصبح الآكل منا مأكولا .. تذكرة لنا بالحقيقة ..

والنار التي تأكلنا جميعا وتحيلنا الى فحم ، الاشجار فحم .. والتعابين فحم .. والقردة فحم والآدميون فحم .. وكل الحياة فحم .. اشارة الى اصلنا الواحد .. فما الحياة الا تصانيف مادة واحدة هي الكربون ..

كل تغيير يعود بصورنا المتعددة الى الواحد الصحيح .. هذه الظواهر المتباينة المختلفة تعود في النهاية الى وحدة بسيطة ..

وكما قلنا قبلا أن في الكائن الحي مئات الانواع من الانسجة جلد وأظافر وعظم وشعر واسنان وعضلات ومخ وكبد ودم والياف وكلها تحورات خلية واحدة بسيطة هي خلية جنين ..

ومن الارض وفي حقل واحد يعطي الطين الواحد الف صنف وصنف من الفاكهة والخضراوات والزهور والطحالب والبكتريا ..

من الواحد يخرج الكل ..

والى الواحد يعود الكل ..

وكما تبدأ بعود كبريت الى جوار عود كبريت الى جوار عود كبريت فتصنع مثلثا ومربعا ومستطيلا ومسدسا ثم هرما ثم مكعبا ثم اشكالا مختلفة من المعمار .. كذلك الوجود المعقد حولك يرتد الى وحدة بسيطة هي الذرة دخلت في تواليف وتراكيب لا آخر لها وانتجت ما ترى من ظواهر مختلفة متباينة تتناقض وتتحارب وتأكل بعضها وتقتل بعضها وهي في النهاية من أب واحد .

واحد صحيح ..

الحياة والموات .. والسوائل والجمادات والغـــازات .. والاشعاعات .. مصنفات شيء واحد .. الفرق بينها فرق نسب وعلاقات وكيفيات .

ذرتان من الاكسوجين تعطيانـــك ذلك الغـــاز اللطيف الذي تتنفسه .

وثلاث ذرات من الاكسجين تعطيك سما زعافا قاتلا اسمـــه الاوزون ..

بل ان نفس الذرتين اذا ركبتا بتشكيل وكيفية مختلفة تعطيان مادة مختلفـــة .

الاختلاف في الماهية يرتد في النهاية الى خلاف في التشكيـــل والكيف والكم .. في النسب والارقام والعلاقات .

الفرق بين السكر والنشا هو فرق في ترتيب وعدد الـذرات الداخلة في تركيب الاثنين ولكن الاثنين من مادة عضوية واحدة هي الكربوايدرات .

والفرق بين سم الثعبان وبين طبق شهي من البيض المقلي فرق شكلي في معمار الذرات .. فالاثنان كلاهما مادة واحدة هـي البروتين ..

والكون شيء واحد يعاد صبه وسبكه في قوالـب وأشكال وتراكيب لا حصر لها ..

والأصل واحد صحيح ..

الفرق بين شكسبير والبواب الـذي يقف عـلى باب بيتك والكلب الذي يهز ذيله أمامك .. والقملة التي تمرح في راسه .. هو الفرق في النسق والترتيب والكيفية الـتي تصطف فيه الاحماض الامينية في الجينات الوراثية .

انه فرق في مادة واحدة اسمها د.ن.ا (حامض ديزوكسي ريبونيوكلييك) تتألف من واحد وعشرين حمضا أمينيـا يمكن أن تصطف بطريقة او بأخرى كما تصطف الحروف فتؤدي الى مخلوقات مختلفة كما تؤدي الحروف الى كلمات مختلفة وعبارات متباينة ..

انه فرق شكلي كيفي .. وفرق في النسق .. وفي الصياغة لمادة واحـدة .. اننا امام خالق مبدع ابدع تصميمات (ارواحا) صيغت على وفاقها مواد اولية واحدة الى ما لا نهاية من الفرديات .

وكما أن ٢٦ حرفا ابجديا امكن ان يؤلف منها ملء مكتبات

الارض من اللغات والعلوم والمعارف والفنون والحضارات بمجرد تباديل وتوافيق بين الحروف .. كذلك صانع الحياة امكنه بالتباديل والتوافيق بين الاحماض والتوليف بينها في تصميمات مبتكرة ان يصنع من المادة الواحدة التي اسمها د.ن.ا كل ما يدب على الارض من فصائل وانواع واجناس وافراد من شكسبير الى الميكروب مارة بكافة صنوف الحيوان والنبات التي تأكل بعضها بعضا وهي في الاصل واحد ..

وعلماء الطبيعة يقولون لنا ان الفرق بين ما نرى من الوان حمراء وخضراء وصفراء وزرقاء هو فرق في أطوال موجات الضوء .. مجرد فرق رقمي ..

والفرق بين اشعة الضوء واشعة اكس واشعة جاما القاتلة وامواج الرادار وامواج اللاسلكي التي نسمع بها الراديو هو ايضا فرق في الاطوال الموجية .

أشعة الضوء تقدر أطوالها بالميكرون واجزاء الميكرون .

وامواج الرادار بالمليمتر ..

.. اما الظاهرة نفسها فهي ظاهرة واحدة اسمها الامواج الكهرمغناطيسية .

والنتيجة مريحة جدا وسارة ، ومثيرة للتفكير وللدهشة بقدر ما هي سارة .. فالفرق بيني وبينك وبين الحمار وبين قالب الطوب هو في النهاية فرق حسابي في الكم وفرق في نوعية الترتيب .. فرق يمكن ان يعبر عنه بالارقام ما دامت مادة الوجود (حيا وميتا) يمكن

ان ترتد في بساطة شديدة الى اصل واحد ولنسمه س .. فيكون الحمار هو الجذر التربيعي لـ ٣٤٣ س وتكون سيادتك لوغاريتم س ص ٩١ واكون انا س ص ع ٣ .. حيث تكون ص، ع رموز للعوامل الكيفية المجهولة التي تقابل عندنا الروح والعقل والضمير .

العالم كله تشكيل من مادة واحدة ..

وما نرى حولنا أنماط فن تشكيلي .. وحاصل ضرب وطرح وجمع وقسمة شيء واحد ..

وبقدر ما يمكن أن ينقسم الواحد .. وبقدر ما يمكن ان تنضاف الأجزاء لتؤلف فيما بينها مجاميع وكسور وجذورا ولوغاريتمات .. وبقدر ما يمكن ان يدلك علم حساب المثلثات وحساب التفاضل والتكامل على الاحتمالات اللانهائية التي يمكن أن تنتج عن هذه العمليات الرياضية تكون صورة الكون الذي تراه أمامك وتكون حقيقته .

مجرد كميات وكينيات ومقادير وحدود رياضية واطوال يقسمها الزمان والمكان الى الصورة التي تراها بها .

وأنت تضحك الآن وتتساءل .. كيف يمكن اختزال العالم بكل مباهجه وألوانه النابضة الى مجرد شفرة رياضية .. ومع ذلك أنت تستمع كل يوم الى الموسيقى وتطرب وتهتز وتنتشي ، مع أن هذه الموسيقى ليست في الحقيقة الا سباقا من الارقام .. مجرد تتابع من الذبذبات يتفاوت ارتفاعا وانخفاضا وشدة وضعفا وهي بحساب الموجات الصوتية التي تطرق طبلة الاذن مجرد

اهتزازات تتفاوت في المقدار .. في النهاية ارقام .. وكيفيات ..

المعمار الموسيقي هو معمار هندسي رياضي في المقام الاول .

انه رسم في الفراغ ..

كل مقطوعة موسيقية معادلة رياضية لها قوانينها .

ومع ذلك فانت تنفعل بهذه المقطوعة الموسيقية كما لو كانت كيانا مستقلا ومخلوقا ذا شخصية .

وبالمثل فانت تنفعل بالغروب كصورة جمالية مع أنه معادلة رياضية من الاطوال الموجية .. وبالمثل يمكن أن يكون الحمار هو في واقع الامر « الجذر التربيعي لـ ٣٤٣ س » مع انك ترى شيئا مختلفا .. مخلوقا له راس واذنان طويلتان وذيل ، فهكذا تترجم لك حواسك بلغتها الخاصة ما ترى من معادلات رياضية وارقام مجردة .

وجهاز الارسال التلفزيوني حينما يرسل صورتك عبر الاثير انما يرسلها على هيئة امواج يلتقطها الاريال لينقلها الى جهاز الاستقبال على هيئة نبض كهربائي يتفاوت شدة وضعفا .. مقادير من الطاقة هي في نهاية الامر المعادلة الرياضية لصورتك .. وما يفعله جهاز الاستقبال (وهو نفس ما تفعله الحواس حينما ترى منظر الغروب) هو أن يترجم هذه المقادير من النبضات الكهربائية . يترجم هذه المعادلة الرياضية الى مقابلها من الظل والنور على شاشة جهاز الاستقبال فتعود صورتك الى الظهور بالشكل الذي عرفتها به (ولكنها قطعا كان لها شكل آخر وهي

على الاثير .. كانت حينئذ امواجا .. كانت معادلة مجـــردة مـــن الحدود الرياضية والمقادير والكيفيات .)

فالعالم اذن له صورتان (وفي الحقيقة صور عديدة بقدر مـــا تتفاوت وسائل الحس) .

صورة هي التي نراه بها

وصورة تقول بها الكميا التحليلية والطبيعة والتشريح وهـــي ارقام ومقادير وكيفيات وعلاقات ترشدنا اليها ادواتنـــا واجهزتنـــا ومقاييسنا .

وصورة مجردة هي النسق الاصلي ،وهي اشبه برسم فراغي او مثال هو الذي خلقه الخالق ابتداء وهي الروح ..

لكل مخلوق روح .. هي المثال والنسق الاصلي الذي صيـــغ عليـــــه .

وهو تقريب وتبسيط فيه كل اخطاء التبسيط والتقريب .. لانه يحاول ان يتلمس ويشخص ويجسد ما لا يمكن تجسيده بالكلام .. فحينما يصل الفكر الـــى منطقة الروح فانه يصـــاب دائمـــا بالعي والخرس فلا يجد اللغة التـــي يستطيع ان يشرح بها احساسه .

ان وحدة النسيـــج بين الموجودات حقيقة مطلقة .

ولكنها وحدة لا تنفي تفرد هذه المخلوقات وانفراد كل منهـــا بشخصيته وخصائصه .

بل ان هذا التفرد يبدو في الانسان تفردا مطلقا ليس فقط في النمط السلوكي والشخصية والنفس وانما حتى في التشكيل البنائي

المادي .. فنرى كل انسان قد انفرد ببصمة اصبع خاصة به لا يتشابه اثنان في هذه البصمة حتى ولو كانا توائم .

ومنذ بدء الخليقة وكل واحد من ملايين الملايين من الادميين له بصماته الخاصة به .

هذا الانفراد المطلق في الجسم والنفس لكل انسان ولكل مخلوق هو حقيقة اخرى تنضاف الى الوحدة المطلقة التي صدر عنها الكل ..

بل ان النسيج الحي ليتفرد لدرجة انه يرفض اي رقعة من جسم آخر .. فيرفض الجسم قلبا او كبدا او كلية تستعار له من جسم آخر لانقاذه .. ويموت مفضلا ان يكون هو هو .. على ان يعيش برقعة من جسد آخر ..

ان تفردنا حقيقة مطلقة .

كما ان صدورنا من اصل مشترك حقيقة ثانية

اننا نخرج من الواحد ..

ولكننا نعود فيتوحد كل منا ليصبح « نسيج وحده » لا يتكرر ولا يشبهه شبيه .

بل ان قصة الحياة هي في ملخصها خروج هذه الشخصية الفردانية المتمايزة من عماء مادة متجانسة كالطين والماء .

واكتشافنا للواحد الصحيح خلف تصانيف الحياة يجب الا يحجب عنا هذه الفردانية والتفرد ولا ان يخفي عنا اصالتنا كأفراد .

وهي فردانية ذات معنى .. فكل منا بعد ان خرج من الواحد الصحيح قد عاد بدوره محاولا ان يصبح « واحدا صحيحا » في ذاته له اصالته الخاصة المتميزة .

وهذه الصورة الجسدية المتفردة هي التعبير الخارجي لتفرد الروح الداخليـــة واصالتها .

ان تفرد القالب هو التعبير الخارجي لتفرد المحتوى

تفرد الشكل يدل علـــى تفرد المضمون .

الروح

اذا كنت انا الجوع فكيف اتحكم في الجوع .

من انت ..

من انتم ..

من نحن ..

من باب التبسط الشديد يقول الماديون ما نحن الا اجسادنا نحيا .. ونموت .. ثم لا شيء بعد .. ولا شيء قبل ..

الاجساد التي كانت .. والتي تكون الآن .. سوف تتحلل غدا الى تراب .. ثم تنتهي القضية فلا شيء في الدنيا سوى مادة .

في البدء كانت المادة ثم تطورت ثم اصبحت انسانا .. وغداً يموت الانسان ويسدل الستار على الفصل الاخير من المسرحية .. هذه حقائق موضوعية .. فلنكن موضوعيين .. فلا وجود الا لما هو

موضوعي .. والجسد شيء موضوعي جدا قابل للدرس والفحص والتشريح .

•

هذا هو الحل السهل .. السهل جدا ..

والقائل هنا لا يكلف نفسه حتى ولو نظرة تحت الجلد .. حتى ولو نظرة الـــى داخل نفسه .

فاذا قلت له أن الجسد ليس الانسان وان داخل الجسد نفسا هي لصاحبها ليست شيئا موضوعيا وانما هي حقيقة ذاتية وانـــه بالنسبة للانسان نجد دائما ذاتا في مقابل الموضوع .. قال لـــك وما الذات .. وما النفس .. انها مجرد حوافز الجوع والجنس والخوف .. وهي مجرد الاشعارات التي يدرك بها الجسد مـــا يحتاجه .. وانها للجسد مجرد ملحقات ثانوية على وجوده وخادمة له .. وما النفس في مجموعها الا مجموع ردود الفعل التي تتراكم كل يوم من صدام الجسم مع بيئته وظروفه .. وهي في النهايـــة يمكن أن تكون موضوعا هي الاخرى .

موضوع بالنسَبة لمن ؟

موضوع بالنسبة للآخرين !!؟؟ .. وكيف والآخرون لا يرونها ولا يدركون وجودها الا استنباطا من ظواهر السلوك وهي ظواهر أغلبها كاذبة فكل منا يمثل على الناس بل ويمثل على نفسه وسلوكه الظاهر قلما يدل عليه .

أم هي موضوع بالنسبة لصاحبها ؟!

وكل منا لو اتخذ نفسه موضوعا فانها تبرد وتستحيل تحت
مشرط التحليل الى جثة وتستخفي عليه وتهرب من يده .. لا
يمكن ان تكون موضوعا ولا أن توضع تحت مجهر مثل
شجرة .. لان جوهرها بالدرجة الاولى في ذاتيتها ، وحقيقتها
الوجه الآخر من الصورة فهي الذات في مقابل الجسد الذي هو
موضوع .. وكلا القطبين الذات والموضوع هما وجها الحقيقة ..
فاذا عرفنا المادة بأنها كل ما هو موضوعي فلا بد من الاعتراف بأن
هنــاك في الوجود شيئا غير المادة هو الوجه الآخر من الحقيقة
الذي هو الذات .

فاذا عدنا الى التعريف الساذج للذات والنفس بأنها مجرد
حوافز الجوع والجنس والخوف والاشعارات التي يدرك بها الجسد
انه ظمآن أو جوعان أو مشتاق جنسيا فاننا أمام تفسير متهافت
شديد القصور فما هكذا حقيقة النفس ولا حقيقة الانسان .

ان الانســان ليضحي بلقمته وبيته وفراشه الدافىء في سبيل
أهداف ومثل وغايات شديدة التجريد كالعدل والحــق والحرية ،
فأين حوافز الجوع والجنس هنا .. وحتى العامل البروليتاري في
فيتنام الذي يموت على مدفعه في سبيل غد لم يأت بعد .. هــو
اثبات قاطع بأن النفس والذات حقيقة متجاوزة وعالية على الجسد
وليست مجرد احتياجات الجسد الحسية معكوسة في مرآة داخلية .
تلك الارادة الهائلة التي تدوس على الجسد وتضحي به هي حقيقة
متجاوزة وعالية بطبيعتها وآمرة ومهيمنة على الجسد وليست للجسد
تبعا وذيــلا .

واذا كنت أنا الجوع فكيف اتحكم في الجوع .. ان مجرد الهيمنة الداخلية على جميع عناصر الجسد ومفردات الغرائز هي هي الكاشفة عن ذلك العنصر المتعالي والمفارق الذي تتألف منه الذات الانسانية .

عن طريق النفس اتحكم في الجسد .

وعن طريق العقل اتحكم في النفس .

وعن طريق البصيرة اضع للعقل حدوده .

هذا التفاضل بين وجود ووجود يعلو عليه ويحكمه هو الاثبات الواقعي الذي يقودنا الى الروح كحقيقة عالية متجاوزة للجسد وحاكمة عليه وليست ذيلا وتابعا تموت بموته .

والذي يقول بأن الانسان مجموعة وظائف فسيولوجية مادية لا غير .. عليه أن يفسر لنا أين ذلك الانسان في لحظة النوم .

ان جميع الوظائف الفسيولوجية قائمة ومستمرة اثناء النوم وجميع الافعال المنعكسة تحدث بانتظام فاذا شككت اليد بدبوس انقبضت بعيدا عنك .. والقلب بالمثل يدق والتنفس يتردد والغدد تفرز والاحشاء تتلوى والاعضاء التناسلية تهتاج .. ومع ذلك فنحن أمام رجل نائم اشبه بشجرة . مجرد شجرة أو حيوان .. أو حياة بدائية لا تختلف عن الحياة الحشرية .. فأين الانسان .

ان النوم ثم اليقظة وهو النموذج المصغر للموت .. ثم البعث

يكشف لنا مرة اخرى عن ذلك العنصر المتعالي الذي يخلق بحضوره في تلك الجثة النائمة فجأة وبلا مقدمات هتلر ونيرون وكاليجولا فاذا بذلك المدد كالثور الهامد يصحو ليقتل ويغزو ويسحق ويمحق .. وان الفرق لهائل .. اكبر من أن يفسر بتغير مادي يتم في لحظات .

ان التبسيط المخل والبحث عن الحل السهل خلاصا من مشكلة بلا جواب هو الذي دفع الماديين الى هذا التصوير الساذج للانسان بأنه جسد ومجموعة ردود افعال وانه من التراب يأتي والى التراب ينتهي ولا أفهم كيف طاوعتهم نفوسهم على تصديق هذه النكتة في عالم رائع محكم تشهد كل ذرة فيه بالنظام والجمال وتتسلسل فيه الاسباب الى غاياتها ويخدم فيه الموت والحياة ويفتدي الانسان بدمه كل لحظة اشد المثل والاهداف تجريدا .. ولا يذهب اي شيء هباء .

فكيف يذهب الانسان وهو اشرف المخلوقات هباء .. ويتبدد سدى .

ونقف مرة اخرى امام ملاحظة ثانية تستحق التأمل هي هذه الخاصية التي تتميز بها الحركة .

فالحركة لا يمكن رصدها الا من خارجها .

لا يمكن أن تدرك الحركة وانت تتحرك معها في نفس الفلك .. ولا بد لك من عتبة خارجية تقف عليها لترصدها .. ولهذا تأتي عليك لحظة وانت في اسانسير متحرك لا تستطيع ان تعرف هل

هو واقف او متحرك .. لانك اصبحت قطعة واحدة معه في حركته .. لا تستطيع ادراك هذه الحركة الا اذا نظرت من باب الاسانسير الى الرصيف الثابت في الخارج .

ونفس الحال في قطار يسير بنعومة على القضبان .. لا تدرك حركة مثل هذا القطار وانت فيه الا لحظة شروعه في الحركة او شروعه في الوقوف. او لحظة اطلالك من النافذة على الرصيف الثابت في الخارج .

وبالمثل لا يمكنك رصد الشمس وانت فوقها ولكنك يمكنك رصدها من القمر او الارض .. كما لا يمكنك رصد الارض وانت تسكن عليها وانما تستطيع رصدها من على القمر .

لا تستطيع ان تحيط بحالة الا اذا خرجت خارجها .

وعملية الادراك هي اثبات اكيد بأن هناك شيئين في كل لحظة .. الشيء المدرك .. والنفس المدركة خارجه .

ولهذا ما كنا نستطيع ادراك مرور الزمن لولا أن الجزء المدرك فينا يقف على عتبة منفصلة وخارجة عن هذا المرور الزمني المستمر ..

ولو كان ادراكنا يقفز مع عقرب الثواني كل لحظة لما استطعنا ان ندرك هذه الثواني ابدا .. ولا نصرم ادراكنا كما تنصرم الثواني بدون ان يلاحظ شيئا ..

وهي نتيجة مذهلة تستدعي وقفة تأمل طويلة ..

فها نحن أمام حقيقة انسانية جزء منها غارق في الزمن ينصرم مع الزمن ويكبر ويشيخ ويهرم (وهو الجسد) وجزء منها خارج عن هذا الزمن يلاحظه من عتبة سكون ويدركه دون أن يتورط فيه ولهذا فهو لا يكبر ولا يشيخ ولا يهرم ولا ينصرم .. ويوم يسقط الجسد ترابا سوف يظل هو على حاله حيا حياته الخاصة الغير زمنية .. ولا نجد لهذا الجزء اسما غير الاسم الذي نقلته لنا الاديان .. وهو الروح ..

وكل منا يستطيع ان يلمس هذا الوجود الروحي بداخله .. ويدرك انه وجود مغاير في نوعيته للوجود الخارجي النابض المتغير الذي يتدفق حولنا في شلال من التغيرات .

كل منا يستطيع أن يحس أن بداخله حالة حضور وديمومة وامتثال وشخوص وكينونة حاضرة مغايرة تماما للوجود المادي المتغير الذي يتدفق حولنا في شلال من التغيرات .

هذه الحالة الداخلية التي ندركها في لحظات الصحو الداخلي والتي أسميتها حالة حضور .. هي المفتاح الذي يقودنا الى الوجود الروحي بداخلنا ويضع يدنا على هذا اللغز الذي اسمه الروح .. او المطلق .. او المجرد .

ونحن حينما ندرك الجمال ونميزه من القبح .. وندرك الحق

ونميزه من الباطل .. وندرك العدل ونميزه من الظلم .. فنحن في كل مرة نقيس بمعيار .. بمسطرة منفصلة عن الحادث الذي نقيسه .. فنحن اذن نقيس من نفس العتبة .. عتبة الروح .. فالوجود الروحي يدل عليه أيضا الضمير .. ويدل عليه ايضا الاحساس الجمالي .. وتدل عليه الحاسة الخفية التي تميز الحق من الباطل والزائف من الصحيح .

هل هذه العتبة خارج الزمن هي الابد ؟.. او هي زمن آخر له تقويم مختلف .. اليوم فيه بألف سنة .. كما ورد في القرآن (ان يوما عند ربك كألف سنة مما نعدون) وكما جاء عن ايام الله .. وهي ايام غير ايامنا ذهب في تفسيرها المفسرون كل مذهب كل هذه تفاصيل لا يمكن ادراكها .. وهي في الغالب مجرد اشارات ورموز تشير ولا تبين وترمز ولا تشرح .. لان بيان حقيقة الروح وكنهها أمر فوق مستوى ادراكنا .. أما الحكم بوجودها فهو الممكن وهو الواجب والضروري .

ولعل الروح هي طابع الحسن الذي تركه الخالق على كل منا كأثر من آثار يديه .. ولعلها من روحه هو اذ نفخ فينا من روحه .. فهي هبه منه ونفحة منه وشرارة مقدسة من نوره وشعاع من شمسه الابدية .. وهي الصورة التي صورتها لنا الاديان .. وهي الصورة الاقرب والاجمل .

ونحن لا نبتعد بعيدا اذا عرفنا هذه الروح داخلنا بأنها الحرية .. حريتنا الداخلية العميقة الباطنة في اعماق السريرة والتي شاء

الخالق ان تكون طليقة من كل قيد وحفظها من كل دخيل ووضع جنده خارجها وجعلها قدس الاقداس وحرما محرما على الجميع الا صاحبها .

فنحن في أعماق سرائرنا نشاء كما يشاء الخالق ونختار كما يختار ولهذا اخلفنا على الارض وجعل منا آلهة صغيرة تحكم وجعلها لنا محنة وامتحانا واختبارا وبروفة يكون بعدها سؤال وحساب واعادة ترتيب في مقامات يوضع كل واحد في مقامه الذي استحقه بجدارته ..

ان منطقة السريرة هي منطقة الحرية وهي منطقة المساءلة (انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى) .. ان منطقة النية والاضمار .. هي المنطقة التي يلاحظها الله بعلمه ويقيم عليها حسابه لانها منطقة الحرية .. وانما يبدأ الجبر وتبدأ القيود حينما ننطلق من السريرة الى الفعل ثم الى التحقيق في العالم المادي .. هنا تتصادم الحريات مع بعضها البعض ومع ظروف البيئة ومع المجتمع وتتدخل الارادة الالهية لتحد من شر الشرير ولتفسح المجال للخير ولتخفف من ضررنا على بعضنا البعض بمقتضى ما فيها من رحمة ولتمد كل واحد بمدد من الامكانيات من جنس ضميره واستحقاقه .

ولهذا يستوى عندي ان اقول ان الله خلق لي روحا وان اقول .. ان الله خلقني حرية .. او خلقني فردا متفردا فكل عبارة منهما تشرح الاخرى .. وتصف من الاعماق ما لا

استطيــع ان اراده بالعين او المسه باليــد .. او اجد له الفاظا ومصطلحـــات .

وفي منطقة الروح لا نستطيع اكثر من اشارة ولا نجد اكثـــر من رمز .. حيث نحن على عتبة خارج الزمن وخارج كـــل شيء محسوس ومنظور .

وحدة نسيج الموجودات تدل على وحدة الخـــالق

منذ عشرين سنة كنا نقف في مشرحة كليـــة الطب .. كـل اربعة امام جزء من اجزاء الجثة ..

وكنا نظن حينئذ ان حقيقة الانسان ليست لغزا .. وان في امكان المشرط ان يكشف عنهـا بضربة واحــدة .. وان الجسم ما هو الا حقيبة اذا فتحتها عرفت كل شيء .

ولكن سنتين طويلتين مرتا .. وانا ابحث وانقب خلف اللحـم والعظم .. وفي الاحشاء والامعاء والشرايين والغضاريف عن هذه الحقيقة دون جدوى .

فتحت القلب .. وفتحت الرئتين .. وتتبعت الاعصاب حتى نهاياتها .. وصعدت مع الحبل الشوكي الى المخ .. وقطعت المخ نصفين .. ثم قطعت كل نصف الى نصفين .. وانتهيت الى كتلة رخوة هلامية بيضاء .. قال عنها الاستاذ .. انها سر الانسان ..

أحقا .. ؟

أهنا يسكن الالم .. وترقد اللذه .. وتنام الارادة .. في هذه الكتلة المائعة الطرية ..

ورفعت راسي في قلق وتشكك .

لقد فتحت الحقيبة فوجدت داخلها حقيبه .. وما زلت بعد سنتين من التعب والكد واقفا حيث كنت امام مجهول .

ان القناع الذي يغلف الانسان ليس ثيابه وحدها .. فجلده ثوب آخر .. ولحمه وشحمه وعظمه كلها ثياب .. أما هو نفسه فبعيد .. بعيد .. تحت هذه الاقمشة السميكة من اللحم والدم .

وقرأت ثلاثة آلاف صفحة في كتب التشريح .. وكانت الخلاصة النهائية لن الانسان مجموعة من الاحشاء في قرطاس من الجلد .

كلام غير صحيح .. مع احترامي لجهود السير كنجهام وجراي وجاميسون وبقية عمالقة الطب الذين تخصصوا في وصف الانسان .

انهم لم يصفوا الانسان على الاطلاق .. وانما وصفوا ثيابه
انهم في نظري ترزية من نوع عصري .. ابدعوا في وصف موديـلات المصارين والامعاء .

ان القلوب المحفوظة في برطمانات متحف كلية الطب .. هي فتارين لتفصيلات مختلفة مـن القلب .. القلب الديكولتيـه .. والقلب الجابونيز ..

اما قلب الانسان الحقيقي .. عواطفه ودمه الساخن النابض بالرغبة فلا يوجد الا في داخلنا نحن الاحياء

ان حقيقة الحياة غير معروفة ..
انها حركة دبت في المادة ..

حركة واعية هادفة حرة .. وطبيعة هذه الحركة لا يعرفها احد .. ولكنها ابدا ليست الجثة على اي حال

ان اجهزة الجسد حينما تعمل تشبه الاراجوز .. فتبدو للناظر من بعيد كأعضاء حية .. تتكلم باختيارها وحريتها .. وهـي في الحقيقة قطع خشبية ميتة تحركها خيوط خفية من وراء خباء .

في داخلنـا اراجوز
في داخلنا زامر ينفخ في بوق اجسادنا .. ويلهو بخيوط اطرافنا فنتحرك وتمشي وتتكلم .

وكذلك الكون كله .. الحيوان والنبات والجماد .. مجموعة ابواق متعددة .. في داخلها .. في قلبها زامر .. ينفخ على الدوام.

والبراهمة الهنود لا يعتقدون ان لكل مخلوق روحا تخصه .. لا يعتقدون ان لكل حمار روحا .. ولكل كلب روح .. ولكل نحلة روح .. وانما يعتقدون بوجود زامر واحد ينفخ في ابواق الكون وروح واحدة تسكنه .. ومعنى واحد تحققه المخلوقات .. كما تحقق الكلمات المتعددة .. الفكرة الواحدة البسيطة .. كما يحقق الرسام والموسيقار والنحات والاديب والشاعر .. المعنى الواحد في سيل من المخلوقات الفنية .

وفي سفر اليوبانيشاد .. صلاة هندية قديمة تشرح هذا المعنى في ابيات رقيقة من الشعر .

ان الاله براهما الذي يسكن قلب العالم يتحدث في همس قائلا :

اذا ظن القاتل انه قاتل

والمقتول انه قتيل

فليسا يدريان ما خفي من اساليبي .

حيث اكون الصدر لمن يموت

والسلاح لمن يقتل

والجناح لمن يطير

وحيث اكون لمن يشك في وجودي
كل شيء حتى الشك :نفسه
وحيث اكون انا الواحد
وانا الاشياء

انه اله يشبه النور الابيض .. واحد وبسيط ولكنه يحتوي في داخله على الوان الطيف السبعة

انه الجنين الذي يحتوي على بذور الصفات كلها
لقد سلك الهنود جميع الموجودات في كل .. وتصوروا لهذا الكل روحا واحدة .. سموها براهما

وما على براهما الا ان ينفخ في البوق ويحرك الخيوط التي تلتقي في يديه فتتحرك الارجوزات جميعا على المسرح

وليس لبراهما عرش وليس له ميزان وهو لا يحاسب ولا يعاقب وهو ليس بشخص على الاطلاق .. انما هو حقيقة الوجود فحسب

ولا شك ان هذه الفلسفة الهندية القديمة قد عادت لتبعث مرة اخرى في عشرات المذاهب الاوروبية .. دون تغيير اي شيء سوى الاسم .

فما قال الهنود انه براهما .. اعتقد به شوبنهور الالماني وسماه

الارادة واعتقد به نيتشه وسماه القوة واعتقد به ماركس وسماه المادة واعتقد به برجسون وسماه الطاقة الحية واعتقد به هيجل وسماه المطلـق .

كلهم قالوا ما قاله بوذا منذ اكثر من خمسة الاف سنة

اني اقدم لكم لاهوتا بغير اله .. وعلم نفس بغير نفس .. ودنيا بلا اخرة .. وان الهي ليس شخصا .. وليس ملكا .. وليس خالقا للاشياء وانما هو الاشياء ذاتها .

وقال بوذا مجيبا على الفقير الذي سأله : ما هي الروح :

ــ هذه غاية التأمل النظري يا ولدي .. هذه صحراء .. وانا لست بهلوانا

ومحور هذه الفلسفة الهندية القديمة هو هذا السطر المختصر

ان الله هو الواحد وهو الاشياء .. وانه لا يوجـد خالق ومخلوق وانما يوجد كل .. هناك الكل والله روح الكل ..

وفي هذه العبارة خلط واضح واعتساف نتائج لا تـؤدي اليها المقدمـات .

فكل ما تقول به الدراسة العلمية التشريحية للحياة والاحياء.. ان هناك وحدة نسيج وان هناك وشائج قرابة وعلاقة رحم بـين

كل الموجودات حتى بين ما هو حي وما هو ميت .. بين تركيب النجوم والمجرات .. وتركيب الاشجار والحيوانات .

تماما كما تلاحظ مجموعة رسوم يظهر فيها اسلوب واحد وخامات الوان واحدة وانواع ورق متشابهة فالنتيجة الطبيعية ان تقول .. ان مثل هذه اللوحات لا بد قد رسمها رسام واحد .. هو الذي انفرد بخلقها لم يشاركه فيها شريك ..

اما ان تقفز من هذه الملاحظة فتقول ان هذه اللوحات هي الرسوم وهي الرسام وانه ليس لها خالق فان مثل هذه القفزة هي تعسف لا منطق له ولا مقدمات تبرره وسببها هو الخلط بين وحدة الموجود ووحدة الوجود .. وانك اعتبرت ان الموجود المتعين المحدود هو في ذات الوقت الوجود المطلق الغير محدد (الله) .

والخطأ الثاني هو انك تصورت ان حواسك هي الحكم النهائي فأنكرت ان يكون هناك عالم غير العالم المرئي لمجرد انك لا ترى غيره .. اذن فلا يوجد غيب ولا آخرة .. ولا يوجد الا هذا الموجود المرئي والله هو قلب هذا الموجود وحقيقته وانتهى الاشكال .. وهو نوع من التبسيط المخل ..

لا يوجد غير الرسوم وهي في ذات الوقت الرسام .. والرسام هو حقيقتها وقلبها وانتهى الاشكال ..

ثم الاعتقاد بالروح الواحدة التي هي روح الكل .. وانكار

أن تكون هناك ارواح متعـددة بعدد المخلوقـات .. هو تعسف آخر .. هذه المـرة قفزة في الفراغ بدون استنـاد الى ادلة او حيثيات .. انما هو حكم آخر بدافع المزيد من التبسيط ..

ولمجرد التبسيط ينتهي بنا التفكير الى نتيجة غير مقبولة .. ان الله هو الواحد وهو الاشياء .. واننا امام طبيعة وقوانينهـا وجوهرها ولا شيء غير ذلك فان سألت من خلـق هـذه الطبيعة قالوا لك انها قديمة لا اول لها ولا آخر وانها هي الله .. فهـي ازلية ابدية واحدة ومتعددة .. وهو تلاعب بالالفاظ هروبا مـن الثنائية التي يفرضها وجود الخالق والمخلوق .. وهروبا من التعدد الجوهري الذي يؤدي اليه الاعتقاد بارواح متعددة .

والاديان السماوية هي التي قدمت الحـل الوحيـد لهـذا الاشكال وما تقوله الاديان السماوية هو الوحيد الذي يقـول به ويقبله التفكير العلمي ..

فاذا كانت الدراسة العلمية التشريحيـة للحياة والدراسة التحليلية الكيمائية لتراب الارض والكواكب ولمكونات الماء والهواء قـد كشفت لنـا ان خامات هـذه الدنيا واحـدة .. واذا كانت علوم التطور قالت لنـا ان تطور الاحيـاء مـن الميكروبات الـى الاشجار والقرود دلت على وجود اساليب واحدة متشابهة وسنن وقوانين متطابقة تعمل .. فان النتيجة الطبيعية ان نقول ان خالق الدنيا والكون والحياة لا بد اذن ان يكون خالقا واحدا لم يشـرك في صناعته شريكا آخر .. وانه انفرد تماما بخلق الدنيا .. ولا

نقول ابدا ان هذا الخالق هو الدنيا .. وانه هو الطبيعــة .. وانه هــو المخلوقــات .

ومرة اخرى تقول لنا العلوم القطعية .. ان ما يقع في نطاق ادراكنا الحسي ليس هو كل شيء .. وان العالم زاخر حولنــا بموجودات غير مرئية وغير ملموسة وغير مسموعة ومع ذلك هي يقينية مثل وجودنا اليقيني نفسه .. مثل ذلك الاشعة تحت الحمراء والاشعة فوق البنفسجية .. وامواج اللاسلكي والرادار واشعة اكس .. ومثل هذه الامواج كانت موجودة قبل ان نخترع الراديو ومحطة اذاعة ماركوني وجهاز اشعة اكس .. هذه الامواج كانت وما زالت تنصب علينا من الشمس منذ ملايين السنين وكــانت تحيط بنا دون أن نراها او ندري بها . فالقول بالغيب والملائكة والمخلوقات الغير مرئية امر طبيعي .. والعكس هو غير الطبيعي .. ان ننكر ما لا نرى لمجرد اننا لا نرى مــع علمنا بحدود حواسنــا أمر غير طبيعي .

والقول بأن الخالق الذي خلق المخلوقات خلق لها ارواحهــا امــر طبيعي ..

فاذا رأينــا الدقة والاحكــام والانضباط في نظــام الكــون من حركة الذرة الى دوران الافلاك .. وقلنا .. ان مثــل هذا الكون المحكم لا يمكن ان يفلت فيه ظالم .. وانه لا بد من حساب وعقاب لكل من يفلت من العقاب في الدنيا .. لكان قولنا طبيعيا ومنطقيا مع جميع المقدمات العلمية المشاهدة .. فلا يوجد دليل

علمي واحد على الفوضى في قوانين الطبيعة .. ولا بد لخالق هذه الطبيعة الرائعة ان يكون خالقا عادلا .

والذي يستبعد البعث .. ويصدق ان الجراح الدكتور برنار يبعث قلب رجل ميت بأن ينقله الى جسد آخر حي فيعود حيا ويكذب : ان الذي خلق برنار والكون الذي يعيش فيه برنار يستطيع ان يحقق معجزة بعث مشابهة .. هو انسان مكابر محدود الفهم .

وان تأتي هذه الحقائق على يد بدوي امي لا يعرف القراءة والكتابة .. فيأتي لنا بقرآن يغير التاريخ ويطابق كشوفات العلم قبل ان تحدث هذه الكشوفات بقرابة ألف وربعمائة سنة هو أمر لا يمكن ان يأتي الا وحيا وتلقينا من الاله الذي يعلم كل شيء .

والذي يقول لك في سذاجة .. ان الله رحيم وسوف يدخل كل الناس الجنة وهل من المعقول ان يضع الله راسه براسنا ويحاسبنا على كلام قلناه وافعال فعلناها ونحن بالنسبة لله ولعظمة الله كالنمل او ذرات التراب أو ذرات الهباء .. غير معقول .. ان الله كبير جدا اكبر من ان يعذبنا .

الذي يتصور الله بهذه الصورة ويظن انه يؤمن به ايمانا رفيعا .. ينسى انه بهذا التصور الساذج يطالب الله بالظلم وبأن يسوي بين الاسود والابيض ويجعل الظالم كالمظلوم والقاتل كالقتيل في حكمه وهذه هي الفوضى بعينها .

ولو انه درس القليل من الكيمياء والطبيعة لعلم ان سنن الله لا تسوي بين الذرات .. حتى الذرات .. وان كل شيء يتحرك باحكام من الالكترون الصغير الى اجرام السماوات العظيمة في توافق مع منطق علمي دقيق وان الذرات تتحد وتتفاعل مع بعضها بحسب اوزانها الذرية مع ان هذه الاوزان مقادير ضئيلة جدا جدا جدا .

وانه باستقراء عجائب الكون ودقة سيرها واحكام تطورها فان العقل ليصرخ .. بين يدي هذه القدرة لا يمكن ان يفلت ظالم ولا ان يهرب قاتل اخطأته قوانين الارض .

ان العدالة تنتظر الجميع .
يقول هذا الميكروسكوب والتلسكوب والترمومتر والبارومتر كما تقوله الكتب السماوية .

وهي الكتب الوحيدة التي تجيب على لغز الموت اجابة ما زالت تتحدى جميع العلوم .

فهرست

كتب الدكتور مصطفى محمود
التي صدرت عن دار العودة ـ بيروت

دراسات دينية

الطريق الى الكعبة

الله

رحلتي من الشك للايمان

دراسات فكرية

لغز الموت

لغز الحياة

الاحلام

اينشتين والنسبية

روايات وقصص ورحلات

المستحيل

الخروج من التابوت

الافيون

العنكبوت

رجل تحت الصفر

الاعمال الكاملة

روايات مصطفى محمود

قصص مصطفى محمود

مسرح مصطفى محمود

دراسات مصطفى

اسلاميات مصطفى